

## التصور الإسلامي لشخصية المسلم (جانب من مؤلفات الإمام ابن القيم)

الدكتور محمد محروس الشناوي

قسم علم النفس، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

### ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على التصور الإسلامي لشخصية المسلم كما يصورها العلامة ابن قيم الجوزية في جانب من مؤلفاته.

ونلخص فكر الإمام ابن القيم حول شخصية الإنسان، وهي أن الإنسان مخلوق ذو خصوصية في الخلق والتكريم، ومخلوق لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده، وكل أعماله تدور في هذا المسار، ويولد على الفطرة، والفطرة هي الإسلام والخير، وأن للأبوين دوراً مهماً في تربية الطفل وتنشئته على القيام بالواجب الذي من أجله خلق؛ وهو عبادة الله، والالتزام بما شرع، في الوقت الواحد لا يكون للإنسان إلا نفس واحدة هي السائدة، فهي إما أمانة أو مطمئنة أو لؤامة، إن النفس الإنسانية بداخلها أحوال يتفاعلها بعضها مع بعض، هي النفس الأمانة، والنفس المطمئنة، والنفس اللؤامة.

إن النفس المطمئنة هي التي تحتكم إلى الإيمان وتستفيد في الحكم من العقل، وهي التي تشبع حاجات الدنيا وتلبي مطالب الآخرة، النفس الأمانة هي التي تستجيب لنزغات الشيطان الذي يلبس عليها دينها وحياتها، فترى الخير قبيحاً وترى القبيح جميلاً. وإن الظاهر الذي يبدو إما قلب صحيح قد التزم صاحبه بالإيمان، أو قلب مريض قد خضع صاحبه للشيطان، وإن بداية الأعمال الظاهرة خواطر أو أفكار باطنة، والنفس دائماً تتعامل مع الخواطر والأفكار، وهذه تتعامل مع الإرادات فإذا نجحت فإن الإرادات تأمر الجوارح، فيخرج العمل من الباطن إلى الظاهر.

### مقدمة

يقع موضوع الشخصية من علم النفس المعاصر موقع القلب من الجسم. وبالرغم من أن علم النفس يُعد من العلوم الحديثة نسبياً، إلا أنه قد تواردت عليه مدارس ونظريات

شئى تختلف باختلاف الظروف والثقافات التي نشأ فيها واضعوها، حتى لا نكاد نرى مدرسة تتفق مع الأخرى في وجهتها.

ولأن دراسة الشخصية تعني بشكل أو بآخر دراسة الجانب النفسي للإنسان بوجه عام، أو بمعنى أدق دراسة الأنماط المتسقة من سلوك الإنسان، كان من الطبيعي أن يصبح صعباً أن تتفق فيه الآراء أو يكون خاضعاً للتجريب المطلق على النحو الذي تعرفه العلوم الطبيعية، فالإنسان قبل كل شيء مخلوق له خصوصيته من حيث الخلق والتكريم، له ظاهر قد يسهل في بعض الأحيان ملاحظته والحكم عليه، وله أيضاً باطن قد يصعب حتى على الفرد نفسه أن يلاحظه بدقة أو يفسره تفسيراً مقبولاً.

وطالما أن دراسة الشخصية تأخذ في اعتبارها الأنماط المتسقة من سلوك الفرد؛ فإنها بغير شك لابد آخذة في اعتبارها المؤثرات الداخلية والمؤثرات الخارجية التي تؤثر في هذا السلوك. ومن هنا يصبح من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن نعزل دراسة شخصية الفرد عن البيئة المحيطة به. ومن هنا نجد أنه من غير المناسب أن يستعير أي مجتمع نظريات للشخصية تطورت في مجتمعات أخرى تختلف عنه في المعتقدات والعادات والقيم، ومن هنا أيضاً كان لابد للباحث المسلم أن يبحث عن التصور الإسلامي للشخصية أو بمعنى آخر أن يبحث في الشخصية من منظور إسلامي يقوم على التصور الإسلامي لطبيعة الإنسان من حيث الخير والشر، وعلى مفهوم إسلامي للدوافع، ومفهوم إسلامي للسلوك السوي والسلوك المنحرف.

من هذه المنطلقات تأتي هذه الدراسة كمحاولة للتعرف على التصور الإسلامي لشخصية المسلم كما يصورها العلامة ابن قيم الجوزية في جانب من مؤلفاته.

### التعريف بالإمام ابن قيم الجوزية<sup>(١)</sup>

هو الإمام السلفي العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية.

وُلد الإمام ابن القيم سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) في بيت متواضع، ونشأ محباً للعلم

(١) انظر في ترجمة الإمام ابن القيم مقدمة المحقق لكتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان للإمام ابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي (جزءان)، نشر دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

والعلماء، منكبًا على التحصيل، فكان مولعًا بجمع الكتب، كما كان يتفنن في ترتيبها وتبويبها. وقد تتلمذ ابن القيم على أكثر علماء عصره، ودرس الفقه والتفسير والتوحيد واللغة والتاريخ، كما عني عناية خاصة بدراسة الفرق الإسلامية برعاية شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد أخذ عنه الكثير ولازمه إلى آخر حياته، وأولع بكتاباته وانكب على دراستها، وقام بتهذيبها وتبويبها ونشرها بين الناس، وكان يتنصر له في جميع ما يصدر عنه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأطلق من معتقله بعد موت شيخه ابن تيمية.

وللعلامة الإمام ابن القيم تصانيف كثيرة عدّها البعض بأكثر من ستين مصنفًا من أشهرها:

\* زاد المعاد في هدي خير العباد (خمس أجزاء).

\* الروح.

\* طريق المهجرتين وباب السعادتين.

\* إعلام الموقعين (أربعة أجزاء).

\* تحفة المودود في أحكام المولود.

\* أحكام أهل الذمة (مجلدان).

\* إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (مجلدان).

\* الفوائد.

\* الوابل الصيب من الكلم الطيب.

\* عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

\* الجواب الكافي (الداء والدواء).

\* بدائع الفوائد.

\* التبيان في أقسام القرآن.

\* مدارس السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين (ثلاث مجلدات).

\* الطب النبوي (وهو جزء من زاد المعاد).

\* مفتاح دار السعادة منشور ولاية أهل العلم والإرادة.

\* روضة المحبين.

وقد توفي الإمام ابن قيم الجوزية عام ٧٥١هـ (١٣٥٢م) مخلّفًا وراءه محبة في قلوب

تلاميذه، وثروة ذاخرة من العلم قائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

### ما الشخصية؟

اختلف الباحثون اختلافاً بيّناً في تحديد المفهوم النفسي للشخصية حتى إن ألبورت (Allport) - وهو من أبرز من اهتموا بالجانب التنظيري لمفهوم الشخصية - قد راجع ما يزيد على خمسين تعريفاً للشخصية قبل أن يضع تعريفه الخاص. وفي اللغة فإن لفظة «شخص» كما يُعرفها الفيروزآبادي في القاموس المحيط معناها «سواد الإنسان وغيره تراه من بُعد»<sup>(٢)</sup>.

ويدل هذا المعنى على عدم اكتمال التفاصيل لدى المشاهد، وهو معنى يعبر إلى حد بعيد عن فكرة الشخصية في علم النفس الحديث.

لقد جاء اصطلاح الشخصية في بعض اللغات الأوربية (مثلاً في اللغة الإنجليزية Personality) مشتقاً من كلمة Persona معناها القناع، وهي ترجع إلى الأقنعة التي كان الممثلون في المسرح الإغريقي يضعونها على وجوههم للقيام بأدوار خاصة تعبر عنها هذه الأقنعة، وانتقلت هذه الأقنعة بعد ذلك إلى المسرح الروماني، ولأن هذه الأقنعة كانت تخفي الملامح الحقيقية للممثل، فإن الظاهر الذي يبدو عليه هو الذي يعلّق بأذهان المشاهدين، وهو يمثل جانباً من مفهوم الشخصية باعتبارها ذلك الجزء أو الجانب الذي يختاره الشخص ليظهر به أمام الناس.

لقد ظهرت تعريفات كثيرة للشخصية مع ظهور علم النفس باعتباره علماً مستقلاً، وانقسم الباحثون في رؤيتهم للشخصية إلى مجموعات متباينة.

فالذين نظروا للشخصية على أنها القناع (Mask) Persona ينظرون إليها على أنها الذات العامة للشخص أي ذلك الجانب الذي يظهره للناس من نفسه أو الجانب الذي نختاره من أنفسنا لنعرضه للعالم، وهذا النوع من التعريفات يدل على أن هناك جانباً غير ظاهر من الشخصية<sup>(٣)</sup>.

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/

١٩٨٣م ج ٢، ص ٣٠٦.

(٣) انظر على سبيل المثال سيد غنيم: سيكولوجية الشخصية محدداتها، قياسها، نظرياتها. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٨م، وانظر أيضاً:

Christopher, F. Monte, Beneath the Mask. An Introduction to Theories of Personality, New York: Praeger Publishers, 1977.

أما المجموعة الثانية من التعريفات فتتعامل مع الشخصية باعتبارها المجموعة المركبة من الاستجابات، وتبعا لهذه النظرة يكون الشخص هو ما يقوم به من أفعال. وتركز تعريفات الشخصية في هذه المجموعة على السلوك الظاهر وتقلل من أهمية المكونات غير الظاهرة (غير المرئية) من الشخصية، والذين يوافقون على هذا الرأي يقولون: إننا إذا أردنا أن نحدد خصائص شخصية إنسان ما فعلينا ببساطة أن نلاحظ كيف يسلك هذا الشخص في المواقف المتنوعة.

وترى المجموعة الثالثة الشخصية كعملية داخلية تضبط السلوك، وتحدد شخصية الفرد عن طريق التفاعل الداخلي، وتقع فيها نظريات الذات Self Theories ونظريات السمات Trait Theories، فمثلاً يقال إن الفرد لديه خصائص معينة وهذه الخصائص تحدد بالتالي كيف سيسلك هذا الفرد في موقف من المواقف، وتبعا لهذه النظرة فإنه لكي يغير الفرد من سلوكه فإن عليه أن يغير من خصائص شخصيته أو ذاته.

ويتفق معظم أصحاب نظريات الشخصية في علم النفس على أن شخصية الفرد يمكن أن توصف في صورة أنماط متسقة من السلوك، فنزوعنا إلى الاستجابة بطريقة متسقة في المواقف المختلفة هو ما يعطينا هويتنا الفردية. إنها تلك الأنماط المتسقة من السلوك (المستقرة تقريباً) هي التي تجعل من الممكن أن نتوقع سلوكنا في المستقبل بدرجة معينة من الدقة. وعندما يسلك شخص ما نعرفه جيداً بصورة غير متسقة مع سلوكه السابق الذي عرفناه به فإننا نقول على الفور: «إنه ليس هو فلان. . .» أو «لابد أن هناك شيئاً غير سلوكه» أو «إن هذا الشخص قد تبدل». . . الخ.

وقبل أن نختم الحديث حول ماهية الشخصية نورد تعريفين للشخصية هما تعريف البورت (١٩٦١م)، وتعريف مادي (١٩٨٠م) Maddi<sup>(٤)</sup>، وهو واحد من المنظرين المعاصرين في مجال الشخصية.

(٤) انظر:

Selvatore Maddi, Personality Theories, A Comparative analysis (4th ed) New York, Academic Press, p.10, 1980.

وانظر أيضاً:

Gordon Allport, Pattern and Growth in Personality, New York: Holt, rinehart & Winston, p.88.

1961.

## ١ - تعريف البورت (١٩٦١م) Allport

عرف ألبورت الشخصية في كتاباته عام ١٩٣٧م بأنها «ذلك التنظيم التفاعلي (الدينامي) داخل الفرد الذي ينظم كل الأجهزة النفسية الجسمية التي تحدد توافقاته المتفردة مع البيئة».

وفي عام ١٩٦١م أعاد ألبورت صياغة هذا التعريف ليصبح على النحو التالي: «ذلك التنظيم التفاعلي (الدينامي) داخل الفرد والذي ينظم كل الأجهزة النفسية الجسمية التي تحدد تميزه في السلوك والتفكير» (ص ٢٨).

## ٢ - تعريف مادي (١٩٨٠م) Maddi

«الشخصية هي مجموعة مستقرة من الخصائص والنزوعات التي تحدد تلك الجوانب المشتركة والاختلافات في السلوك النفسي للناس (الأفكار، والمشاعر، والتصرفات)، والتي يكون لها صفة الاستمرارية عبر الزمن ولا تعبر ببساطة عن استجابات للضغوط الاجتماعية أو البيولوجية العابرة» (ص ١٠).

## نظريات الشخصية في علم النفس

سبق أن قلنا إن وجهات نظر الباحثين النفسيين تختلف اختلافاً بيناً فيما يتعلق بمفهوم الشخصية وما إذا كان هو ذلك الجانب الخارجي الذي نراه أم هو الجانب الداخلي الذي يحركه وما إذا كانت هذه الجوانب مورثة يأتي بها الإنسان للعالم أم إنها مكتسبة من خلال التعلم أثناء النمو والارتقاء الفردي .

وقد نظرت مدرسة التحليل النفسي للشخصية على أن مصدرها الطاقة النفسية والتي يستمدّها الفرد من غريزة الجنس المعبرة عن الحياة وغريزة العدوان المعبرة عن الموت، وأن الشخصية تتركز حول مجموعة من الصراعات داخل الفرد بين «الهو» id باعتباره الجانب الخاص بالرغبات، و«الأنا الأعلى» Superego باعتباره المعبر عن الضمير أو صوت المجتمع و«الأنا» ego باعتباره الجانب المنظم للعلاقة بين هو والأنا الأعلى، وكذلك الصراع بين الشعور، وما تحت الشعور، واللاشعور، والصراع بين تحقيق مبدأ اللذة وتحقيق مبدأ الواقع، وبالتالي فإن الشخصية تمثل عملية دينامية مستمرة من الصراعات ينتج عنها حلول

لهذه الصراعات هي التي نراها في الظاهر أو عدم وجود حلول مناسبة حيث تبدأ الدفاعات أو يسود القلق ومن رواد هذه المدرسة سيجموند فرويد S. Freud .

أما المدرسة العضوية فقد صورت الشخصية في صورة أنماط مستمدة من التكوين أو البنيان الجسماني للفرد ومن رواد هذه المدرسة شيلدون Kretchmer وكريتشمير . وقد نظر منظرو المدرسة السلوكية إلى الشخصية على أنها تقع بين مثيرات من البيئة واستجابات للفرد وأن شخصية الفرد تتحدد في تلك الاستجابات التي نراها وأنه ليس هناك جانب موروث من الشخصية بل كلها مكتسبة من البيئة بفعل قوانين الإشراف الكلاسيكي (بافلوف) أو الإجرائي (سكينز) أو من مشاهدة نماذج سلوكية (باندورا) وأن ذلك يتولد عنه عادات سلوكية هي التي تحدد شخصية الفرد .

وقد اعتبر كارل روجرز Rogers الشخصية في صورة كيان ذاتي للفرد، أو هي الذات التي يسعى الفرد لتحقيقها والتي يبينها من مجموع الخبرات التي يمر بها والتي يدركها على أنها تحقق التقدير الذاتي وتقدير الآخرين وتستوفي شروط الأهمية، وأن الظاهر الذي يمكن أن نتعرف عليه من الشخصية هو مفهوم الفرد عن ذاته Self Concept والذي يمثل الجانب المعرفي للذات . أما ألبورت، وكاتيل، وأيزينيك فقد اعتبروا الشخصية في صورة سمات داخلية تتفاعل مع الظروف البيئية لتنتج لنا السلوكيات التي يقوم بها الفرد أي الجانب الظاهر من شخصيته . وتحاول المدرسة المعرفية التي بدأت في التبلور منذ سنوات قليلة أن تركز على الجانب المعرفي، من إحساس وإدراك وتذكر وتفكير واعتقادات ومفاهيم، على أنه الجانب المهيمن على السلوك الذي نراه ظاهراً أمامنا .

ومهما كان من أمر تلك النظريات وأصحابها والافتراضات التي أدت إليها والنتائج التي تمخضت عنها فإنها في أكثرها أخفقت في تحديد واضح لما يمكن أن نطلق عليه «الشخصية» بحيث نرتب عليه أموراً ذات أهمية مثل توقع السلوك Prediction أو تحديد انحراف السلوك Deviance أو وصف أساليب للعلاج النفسي Psychotherapy .

وقد جاء معظم هذه النظريات مستنداً إلى «فلسفات قديمة» أو «آراء شخصية» أو «ملاحظات عابرة» كما جاء الجزء القائم على «مشاهدات تجريبية» مفتقداً لإمكانية التعميم حيث كانت معظم التجارب على حيوانات المختبر، وشتان بين الإنسان الذي كرمه الله وبين الحيوان المسخر لأغراض حياته .

ومعظم نظريات الشخصية، إن لم تكن جميعها، قد أهملت الجانب الروحي في حياة الإنسان وفي سلوكه أو قللت من أهميته، وهذا الإهمال هو الذي أفقد هذه النظريات مصداقيتها، فإننا لا نتصور إنساناً خلوّاً من الجانب الروحي، ومادام الأمر كذلك وكان الجانب الروحي ضمن حياة الإنسان فلاشك أن تأثيره على السلوك ومن ثم على الشخصية أمر واقع لا محالة.

لقد جاءت نظريات الشخصية التي يتداولها الباحثون في علم النفس، من بيئات وثقافات تراخت في التمسك بالدين والقيم بل وراح بعضهم مثل فرويد يهاجم الدين بينما أسقطه الباكون - إلا القليل - من حساباتهم في تفسير السلوك.

وقد استقى بعض المنظرين في مجال الشخصية، أفكاره عن الشخصية من ملاحظات للمرضى النفسيين مدخلاً إليها الجوانب الذاتية من شخصه، مما جعله ينتج نظرية مريضة! وأبرز الأمثلة على ذلك فرويد الذي وضع نظرية التحليل النفسي واعتبر فيها الإنسان في حالة دائمة من الصراع بين رغبات الجنس والعدوان من ناحية وبين رفض المجتمع لهذه الرغبات، وهذا الرفض يكون الفرد قد استدججه أثناء النمو، وأن الإنسان حين يستجيب لهذا الصوت المرتفع صوت «الأنا الأعلى» فإنه يضطر إلى «كبت» هذه الرغبات (المخزية!) في مخزن اللاشعور ولكنها لا تبارح الفرد وإنما تعاود الهجوم عليه تارة في أحلامه وتارة في أقواله وتارة أخرى في صورة اضطراب ومرض نفسي يبدأ بالقلق ويتفرع إلى أنواع متنوعة من الاختلالات النفسية.

ويرى الباحث أن الشخصية يمكن تعريفها من وجهة نظر إسلامية بأنها: «مجموعة مستقرة من الخصائص والتصرفات التي تنطلق من المكونات الروحية والعقلية والبيولوجية للإنسان بما يجعله يفي بحاجاته الروحية والبدنية في صورة متوازنة وتعطيه تفرد في سلوكه وتفكيره».

وسوف ينطلق الباحث في دراسته لمجموعة من الجوانب العامة التي تحدد الشخصية من المنظور الإسلامي متجهاً منها إلى خصائص شخصية المسلم وذلك في إطار استقراءه لفكر الإمام ابن قيم الجوزية كما يظهر في جانب من مؤلفاته، وعلى الرغم من تعددها فإن المؤلف يرى أن محدودية البحث مرتبطة بمحدودية ما أمكنه الاطلاع عليه ومراجعته من مؤلفات ابن القيم يرحمه الله.



وتشتمل الدراسة على الجوانب التالية :

- ١ - الإنسان باعتباره مخلوقاً ذا خصوصية .
  - ٢ - بنية الشخصية :
    - ( أ ) وحدة النفس وحالاتها .
    - ( ب ) سمات الشخصية .  - ٣ - الوسطية والاعتدال في شخصية المسلم .
  - ٤ - الجوانب المعرفية للشخصية .
  - ٥ - الانفعالات .
  - ٦ - الفروق الفردية .
  - ٧ - نمو الشخصية .
  - ٨ - اضطرابات الشخصية .
  - ٩ - العلاج النفسي .
- وبذلك فإن الباحث يتعامل مع جانب كبير من مكونات الشخصية وكذلك نموها وانحرافها (الاضطرابات) وكيفية ردها إلى جادة الصواب والعلاج النفسي .

### جوانب الشخصية في فكر الإمام ابن قيم الجوزية

الإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية من أئمة السلف المحدثين في الفقه والسيرة والتفسير، وكذلك في كثير من شؤون الحياة التي تناولها من منطلق إسلامي عميق . والمتصفح لكتابات والقارىء لها بتعمق يلمس أن هذه الكتابات قد تناولت في عمق وتمكن كثيراً من الجوانب التي يدخلها الباحثون المتخصصون تحت مفهوم الشخصية، فمن تناول للدوافع (في كتاب الفوائد)، لتناول لبنية الشخصية (الروح، وإغاثة اللفهان)، إلى النمو (تحفة المودود)، إلى الجوانب المعرفية (الفوائد، وإعلام الموقعين)، إلى أمراض القلوب (الداء والدواء، وإغاثة اللفهان)، إلى الانفعالات (مدارج السالكين). وسوف نعرض فيما يلي لمجموعة من الجوانب التي تحدد معالم الشخصية من منطلق إسلامي كما نستقرؤها في مجموعة من مؤلفاته وهي على وجه التحديد :

١ - الروح .

٢ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان .

٣ - إعلام الموقعين .

٤ - مدارج السالكين .

٥ - تحفة المودود .

٦ - الفوائد .

### أولاً : الإنسان باعتباره مخلوقاً ذا خصوصية

لعل نظرة الإنسان لنفسه وتعرفه على كنه ذاته من الأمور التي لا يمكن للعقل وحده أن يدله عليها، ولهذا فإن المفهوم الإسلامي للإنسان من حيث الخلق والهداية هو المفهوم الصحيح الذي يمثل الحقيقة الباقية التي لا يمكن أن تنازعها نظرية . وقد اهتم الإمام ابن القيم بالحديث عن الإنسان بصورة يلخص فيها معالم هذا الكائن معتمداً في ذلك على الأصول الإسلامية القرآن والسنة . يقول - يرحمه الله - في كتابه مدارج السالكين<sup>(٥)</sup> :

«فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلق نفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره . وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين هم أهل قربته، استخدمهم له وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وطقنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه وإليه، واتخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواص والأخبار، وجعلهم معدن أسرارهم، ومحل حكمتهم، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني، فهو خلاصة الخلق وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب .

فلإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من المخلوقات، وطرد إبليس عن قربته وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذ عدواً له» . (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٣٢) .

(٥) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية): مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (ثلاثة أجزاء) القاهرة: دار الحديث: دون تاريخ (ص ٢٣٢) . والكتاب شرح لكتاب (منازل السائرين) للهروي .

هكذا جمع ابن القيم الخصائص الأساسية للإنسان في تلك العبارات الموجزة التي

شملت الجوانب الآتية:

١ - خاصة التكريم والتفضيل على كثير من المخلوقات .

٢ - تسخير ما في الكون لحياة الإنسان .

٣ - إرسال الرسل لهدايته .

٤ - تفضيل بعض الخلق وخصوصيتهم .

٥ - التكليف .

٦ - المسؤولية .

٧ - العبودية .

وهذه الخصوصية، وهذا التكريم لهما أهمية كبرى في تصوير شخصية الإنسان فهي جوانب ترقى بالإنسان عن أن نساويه بالكائنات الشهوية (الحيوانات) كما فعل فرويد حين اعتبر غريزتي الجنس والعدوان المحركات الأساسية لسلوك الإنسان وحين ربط بين نمو الطفل وبين غريزة الجنس حتى إنه قسم مراحل النمو إلى مراحل نفسية جنسية .

والإنسان الذي كرّمه خالقه جلّ وعلاً على سائر خلقه، وشرفه بأن خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل المخلوقات، هذا الإنسان لا بد أن يكون مفطوراً على الخير وليس موجّهاً ببواعث الشر كما يرى فرويد ومن يشايعه في آرائه . كما أنه لا بد أن يحمل في فطرته ما يتقرب به إلى خالقه جلّ وعلاً ويجعله يدين له بالعبودية وإسلام الوجه، ولا يكون كما ترى المدرسة السلوكية مجرد صنعة من صنائع البيئة تحدد سلوكياته فتستحيل إلى عادات لا إرادة له فيها ولا توجيه لها من داخله .

إن وصف الإنسان بهذه الأوصاف التي أجملها ابن القيم، يجعل كل باحث نفسي يتوقف ويتفكر، بل ويرفض أي نظرية تهبط بهذا الإنسان عن درجة التكريم التي منحها الله له .

إن نظريات الشخصية التي ظهرت في مجال علم النفس سواء منها ما أخذ السلوك الظاهر على أنه الشخصية، أو تلك التي اعتبرت ما يمكن أن يكون بداخل الفرد من صراعات بين الرغبات والقيم والشعور واللاشعور، أو التي رأت أنه يرث مجموعة من السمات توجه سلوكه في البيئة بتفاعله معها - هذه النظريات كلها قد أغفلت حقيقة خلق

الإنسان وذلك الجانب الروحي الذي يحركه في الحياة دخولاً وخروجاً مولداً وموتاً وبعثاً، ويؤثر على سلوكياته النفسية كافة: عقلية أو عاطفية أو إجرائية، والغاية من خلقه وهي عبادة الله وحده وهي بذلك قد نظرت إلى السلوك نظرة جامدة حيث لا مرجع يوجه حركة الإنسان سوى ظروف كل فرد ومن هنا يظهر ما وقعت فيه هذه النظريات من قصور شديد.

يقول نجاتي (١٩٨٤م):<sup>(٦)</sup>

«غير أن علماء النفس المحدثين قد أغفلوا في دراستهم للشخصية تأثير الجانب الروحي من الإنسان في شخصيته وسلوكه مما أدى إلى قصور واضح في فهمهم للإنسان وفي معرفتهم للعوامل المحددة للشخصية السوية وغير السوية، كما أدى إلى عدم اهتمامهم إلى مفهوم واضح دقيق للصحة النفسية، وأدى ذلك بالتالي إلى عدم اهتمامهم إلى الطريقة المثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية».

«وقد لاحظ إريك فروم Fromm المحلل النفسي قصور علم النفس الحديث وعجزه عن فهم الإنسان فهماً صحيحاً بسبب إغفاله دراسة الجانب الروحي في الإنسان. ويبدو ذلك واضحاً من قوله: «إن التقليد الذي يعد السيكلوجيا دراسة لروح الإنسان دراسة تهتم بفضائله وسعادته - هذا التقليد نُبذ تماماً، وأصبح علم النفس الأكاديمي في محاولته لمحاكاة العلوم الطبيعية والأساليب المعملية في الوزن والحساب - أصبح هذا العلم يعالج كل شيء ماعدا الروح، إذ حاول هذا العلم أن يفهم مظاهر الإنسان التي يمكن فحصها في المعمل، وزعم أن الشعور وأحكام القيمة، ومعرفة الخير والشر، ما هي إلا تصورات ميتافيزيقية تقع خارج مشكلات علم النفس، وكان اهتمامه ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم، وذلك بدلاً من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان المهمة. وهكذا أصبح علم النفس علماً يفتقر إلى موضوعه الرئيس وهو الروح وكان معنياً بالميكانيزمات، وتكوينات ردود الأفعال والغرائز، دون أن يُعنى بالظواهر الإنسانية المميزة أشد التمييز للإنسان كالحب والعقل والشعور والقيم».

وهذا القصور في فهم علماء النفس المحدثين للإنسان قد دفع إبراهيم ماسلو Maslow

(٦) محمد عثمان نجاتي: مفهوم الصحة النفسية في القرآن الكريم والحديث الشريف. نشرة الطب الإسلامي، العدد الثالث، الأبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الثالث عن الطب الإسلامي، الجزء ٢م ٥، أكتوبر ١٩٨٤م، الكويت.

أيضاً إلى اقتراح تصنف جديد لدوافع الإنسان يشمل الدوافع الروحية التي يغفلها عادة علماء النفس المحدثون.

إننا لا نستطيع أن نفهم الإنسان فهماً واضحاً دقيقاً، كما لا نستطيع أن نكون مفهومًا دقيقاً وسليماً عن صحته النفسية دون أن نفهم جميع العوامل المحددة لشخصية الإنسان، سواء أكانت عوامل بيولوجية أم روحية أم اجتماعية أم ثقافية» (نجاتي، ١٩٨٤م، ص ٥٠٧، ٥٠٨).

ونتابع مع ابن القيم حديثه عن الإنسان حيث يخص من اهتدى بالإيمان بخصوصية الخيرية فيقول رحمه الله: (٧)

«فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، ولتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تُنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوباً له، وأعد له أفضل ما يعدّ محب غني قادر لمحبوته إذا قدم عليه. وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه. وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه ويسقطه من عينه. . . .» (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٣٢).

### ثانياً: بنية الشخصية

يمكن أن نتعرف على بنية الشخصية في فكر الإمام ابن القيم من تعرفنا على مجموعة من الجوانب المتصلة بها مثل وحدة النفس وحالاتها، وسمات الشخصية، واعتدال الشخصية، والجوانب المعرفية، والانفعالات وغيرها نتناوله فيما يلي:

#### (١) وحدة النفس وحالاتها

ناقش الإمام ابن قيم الجوزية مسألة وحدة النفس وحالاتها، وهل النفس واحدة أم هناك ثلاث أنفس أمارة ومطمئنة ولوامة. وقد أفرد لهذه المناقشة صفحات عديدة في مجموعة من مؤلفاته وبصفة خاصة في كتابي الروح، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

يقول رحمه الله في كتابه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: <sup>(٨)</sup> «وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات، المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة. فاختلف الناس: هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها أم للعبد ثلاث أنفس؟ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة: فالأول قول الفقهاء والمتكلمين وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية، والثاني قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق: إنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها. فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى، فهي متعددة، وما أظنهم يقولون إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها مساوية للأخرى في الحد والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر سبحانه النفس وأضافها إلى صاحبها، فإنما ذكرها بلفظ الأفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يرد في موضع واحد «نفوسك» أو «نفوسه» ولا «أنفسك» و«أنفسه» وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم كقوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾، (التكوير: ٧). أو عند إضافتها إلى الجمع كقوله ﷺ: «إنما أنفسنا بيد الله». [ص ٧٥، ٧٦].

ويناقش الإمام ابن القيم المسألة نفسها في كتابه: «الروح» فيقول: <sup>(٩)</sup>

\* المسألة الحادية والعشرون: وهي هل النفس واحدة أم ثلاث؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة. وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. (الفجر: ٢٧)، وبقوله تعالى: ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾. (القيامة: ١، ٢)، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾. (يوسف: ٥٣). والتحقيق: أنها نفس واحدة ولكن

(٨) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان)، بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ، ج ١.

(٩) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) الروح لابن القيم: في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل، من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٢٩٤ وما بعدها.

لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنيتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه . . .

وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾. (القيامة: ٢). فاختلف فيها فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد، فهي كثيرة القلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله . . .

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة: هي نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة. قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان هذا أولى أو نحو هذا من الكلام؛ وأما النفس الأمارة فهي المذمومة التي تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾. (يوسف: ٥٣).

وقد امتحن الله سبحانه وتعالى الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كما أكرمه بالمطمئنة، فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ومطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحتها . . .».

وقد أفاض الإمام ابن القيم في الحديث عن صفات أو خصائص النفس المطمئنة فكأنه بذلك يتحدث عن صفات فرعية تنفرد عن صفة الطمأنينة وهي التي يسعى المؤمن لتحقيقها عبر حياته، ثم تناول بالحديث النفس الأمارة وهي التي تهوي بالإنسان إلى مدارك الشهوات، وقد عبر عنها في كتاب الروح باسم النفس السحارة لأنها كما يقول (١٠) «تسحر العقل والقلب فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجملها فتخرجه في صورة مذمومة، وأكثر الخلق صبيان العقول، أطفال الأحلام، لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشر الشرين فيجتنبه» [ص ٣٠٧].

والإمام ابن القيم لم يكن أول العلماء المسلمين في مناقشة هذا التقسيم لحالات النفس والمستقى من آيات الكتاب الحكيم، فقد سبقه لذلك شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك أبو حامد الغزالي، إلا أن ابن القيم قد أفاض في مناقشة وبيان هذه المسألة

بشكل مستفيض، وفي أكثر من مؤلف من مؤلفاته، وربما كانت أطول مناقشة خص بها هذه المسألة هو ما ورد في كتابه «الروح» حيث قارن الصفات والخلق المنبعثين من النفس المطمئنة بتلك المنبعثة عن النفس الأمارة. وهذه المقارنة الرائعة تدل على عمق المعرفة بالإنسان وسلوكه وعمق القدرة على التحليل والمقارنة.

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين في مجال الدراسات النفسية من المسلمين أن يعقدوا موازنة بين تلك الصفات للنفس التي تحدث عنها الإمام ابن القيم ومن سبقه من علماء المسلمين، والتي استندوا فيها إلى المنهج الإسلامي قرآنًا وسنة، وحالات أو أنظمة العقل التي تحدث عنها فرويد (الهو- الأنا- والأنا الأعلى)، إلا أننا لا نوافق على مثل هذه المناظرة أو المقارنة، فالباحث المدقق يجد بوضوحًا شاسعًا بين ما يقرره علماء المسلمين وبصفة خاصة الإمام ابن القيم وبين ذلك الذي تخيله فرويد. ذلك أن علماء المسلمين حين يعرضون للصفات العامة الثلاث للنفس: الأمارة، واللوامة، والمطمئنة فإنما تكون معايير تحديد هذه الصفات واضحة أمامهم في ضوء المنهج الإسلامي وهي معايير متعددة تعدد الصفات التي يوصف بها المؤمنون الذين يتصفون بالنفس المطمئنة والصفات التي يوصف بها من عداهم الذين تسيطر عليهم النفس الأمارة بالسوء وهذه المعايير تبدأ من العقيدة فالعبادات فالمعاملات ومكارم الأخلاق، بينما فرويد قد بنى أنظمته على مجرد تصور قائم على أن سلوك الإنسان توجهه غريزتا الجنس والعدوان.

ومما يذكر أن باحثًا غربيًا هو إيريك بيرن (Berne ١٩٦١م)<sup>(١١)</sup> الذي افترض أن للإنسان ثلاثة جوانب يمثلها في الوالد، والراشد، والطفل، وهي تقرب من تقسيم فرويد، فالأب يمثل الضمير والراشد يمثل العقل والطفل يمثل اللهو، هذا الباحث يرفض أن يقارن نظامه مع نظام فرويد على أساس أن نظام فرويد لا يمكن أن نقف عند لحظة ما، ونقول: إن هذا الشخص يعيش الآن حالة تسيطر فيها الهو أو الأنا أو الأنا الأعلى بينما يمكن تبعًا لنظرية بيرن (تحليل التعاملات Transactional Analysis) أن نتعرف حالة الفرد (والد، راشد، طفل) من خلال تحليل المحاورة التي تجري بينه وبين شخص آخر، فكيف يسمح

(١١) إيريك بيرن E. Berne هو صاحب نظرية العلاج بتحليل التحويلات Transactional Analysis.

للاطلاع على تلك النظرية انظر:

Eric Berne (1961) Transactional Analysis in Psychotherapy New York: Grove Press.



باحث مسلم لنفسه أن يعقد مثل هذه المائلة، بينما المنطلقات التي ينطلق منها الباحث المسلم، وهي منطلقات العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد وشرعية الإسلام، واضحة المعالم صريحة المعايير محددة بحدود واضحة لكل مسلم؟

﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ . (البقرة: ٢٥٦).

﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ . (البقرة: ٢٣٠).

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ . (البقرة: ٢٢٩).

﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾ . (النساء: ١٧٦).

وعلى حين يحدد المنهج الإسلامي بوضوح الغاية العليا لخلق الإنسان، وهي عبادة الله وحده تصديقاً لقوله تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ . (الذاريات: ٥٦).

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا

أول المسلمين﴾ . (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

نجد من الناحية الأخرى أن «فرويد» في نظريته للتحليل النفسي قد جعل المحرك الأساس لسلوك الإنسان هو غريزة الجنس وغريزة العدوان، وراح يفسر بهاتين الغريزتين كل مظاهر السلوك؛ الحسن منها والقيح، وقد أدى ذلك الاضطراب في التصور، والذي بناه على خيال مريض وتعامل مع المرضى النفسيين، أدى ذلك إلى معارضة قوية من زملاء وتلاميذ له.

لقد هبط فرويد، بهذه المغالاة في الدور الذي يقوم به الجنس أو العدوان، بالإنسان الذي كرمه الله، هبوطاً سحيقاً واختزل الإنسان المكرم، والمكلف، والمسؤول، والعابد، والعاقل إلى مستوى البهائم التي تحركها الشهوات، ونحن نقرأ في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد وصف أناساً بأنهم كالأنعام؛ لأنهم ابتعدوا عن الهدى وأصبحت حياتهم دائرة حول حاجتهم الشهوانية كالجنس والطعام... وأغلقوا عقولهم عن أن تصل إليها معالم الحق والهدى وانشغلوا بالدنيا واعتبروها غايتهم.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ .

(التوبة: ٣٨).

ويقول:

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾. (الأحقاف: ٢٠).

ويقول أيضاً:

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾. (الفرقان: ٤٤).

وعلى حين اعتبر فرويد أن الإنسان ينطلق في سلوكه من طبيعة شريرة فإن الإسلام يقرر أن الإنسان قد فطر على الخير وأنه يأتي إلى الدنيا على فطرة الإسلام فطرة الخير، يقرر القرآن ذلك وتقرره السنة النبوية أيضاً.

يقول الله تعالى:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾. (الأعراف: ١٧٢).

ويقول سبحانه:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (الروم: ٣٠).

ويقول الرسول ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». (متفق عليه).

والإنسان وهو مفطور على الخير، فإنه يقبل الشر حيث يتعلمه من بيئته بدءاً من أسرته ومن أبويه بشكل خاص إذا كان ذلك منهجها في الحياة، لكنه أيضاً يعود إلى الخير إذا ذكر به وأرشد إليه وشاء الله أن يهديه.

شتان بين أن ننظر للإنسان تلك النظرة الوضعية التي نظر إليه بها «فرويد» وأن ننظر لهذا الإنسان تلك النظرة العالية التي كرمه فيها الإسلام بتكريم خالقه جل وعلا له، وبالتزامه بغاية خلقه عبادة الله، ووظيفة حياته، الخلافة في الأرض وعمرانها، فإنه يستمر في انطلاقه من هذه الفطرة، فطرة إسلام الوجه لله والإيمان به سبحانه، فطرة الخير والسلام. نعود إلى القول إنه لا وجه لمقارنة أو مماثلة بين فكرة سطحية، نشأت كما يقول

أصحاب المدرسة الإنسانية في علم النفس، من عمل مع مرضى النفوس فما كان لها أن تعطينا غير منظور مريض للإنسان وسلوكه ودوافعه، وبين عمق المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المنهج الذي يقرر أن النفس خلقت على السواء على الصحيح وأنها تقبل مفطورة على الخير لا تستعصي على الشر وأن الخير واضح ومحدد والشر معروف ومحدد. وصدق الله العظيم:

﴿ونفس وما سواها. فآلهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾. (الشمس: ٧-١٠).

### (ب) سمات الشخصية

السمة في علم النفس الحديث هي «بنية عقلية تعمل على بدء الاستجابات وتوجيهها وبذلك فهي ذات أهمية في الاتساق الذي يظهر في سلوك الفرد». (ألبورت ١٩٣٧م، ص ٢٨٩)<sup>(١٢)</sup>.

وتعتبر النظرة إلى الشخصية على أنها تتكون من مجموعة من السمات، التي توجه الاستجابة إزاء مثيرات معينة وتعمل على وجود الاتساق في سلوك الفرد، وجهة من وجهات دراسة الشخصية التي بدأت في التبلور منذ قيام ألبورت وأودبيرت (١٩٣٦م)<sup>(١٣)</sup> Allport & Adbert بفحص مجموعة من الصفات المتداولة في وصف الناس وصل عددها إلى ١٧٩٥٣ صفة.

وقد عاد ألبورت (١٩٦١م)<sup>(١٤)</sup> فعرف السمة بأنها: «بناء عصبي نفسي له إمكانية اعتبار عديد من المثيرات على أنها متكافئة وظيفياً، وأن يؤدي إلى بدء وتوجيه صور متسقة من السلوك التكيفي والتعبيري». (ألبورت ١٩٦١م، ص ٣٤٧).

(١٢) ألبورت:

Gordan Allport (1937) Personality: A psychological Interpretation New York: Henry Holt.

(١٣) ألبورت وأودبيرت:

Gordon Allport & H.S. Odbart (1936) Trait Names: A psycho-Lexical Study Psychological Monographs, 47, No.211, 1-171.

(١٤) ألبورت (١٩٦١م) مرجع سابق، ص ٣٤٧.

إن السمات في رأي ألبورت هي المسؤولة عن الاتساق في سلوك البشر، ولأنه لا يوجد شخصان لديهما السمات نفسها تماماً فإن كلاً منهما يواجه الخبرات البيئية بشكل مختلف. وعلى سبيل المثال فإن الشخص الذي لديه سمة الألفة والمودة سيستجيب للغريب بشكل مختلف عن شخص لديه سمة التشكك، وفي كلتا الحالتين فإن المثير واحد، ولكن الاستجابات مختلفة لوجود سمات مختلفة تشترك فيها أو كما يقول ألبورت معبراً عن ذلك<sup>(١٥)</sup>.

«إن النار التي تصهر الزبد هي نفسها التي تقسي البيض (تجعله صلباً)» (ألبورت ١٩٦١م، ص ٣٤٧). ويتفق الباحث مع البورت في هذا التعريف للسمة.

ولقد تعددت تصنيفات الباحثين في مجال علم النفس للسمات ولعددها، فمنهم من جعلها عديدة ومنهم من اختصرها اختصاراً شديداً ووضعها في صورة أبعاد، وقد حاول بص وفين (١٩٨٧م) Buss & Finn<sup>(١٦)</sup> تصنيفاً جديداً للسمات تحت فروع نزوعية (أعمال وتصرفات) مثل السيطرة والتمرّد والعدوان والوصولية والغيرية والعطاء والنجدة، ووجدانية مثل الخجل والخزي والتعاطف والاستياء والتأثم والهناء والغضب والخوف، ومعرفية مثل الوعي بالذات ومركز ضبط التعزيز والتخلق وتقدير الذات والثقة في الآخرين والتبذل والتشكل حسب المواقف... الخ.

وإذا رجعنا إلى ما كتبه الإمام ابن القيم في هذا الخصوص نجده في كتاب الروح قد أفرد له فصلاً في أعقاب حديثه عن صفات النفس: الأمانة، واللومة، والمطمئنة. وابن القيم في هذا تناول يصوغ موضوع السمات صياغة إسلامية رائعة، فهو لا يأخذ السمة ولا ما ينطلق عنها من سلوكيات (أفعال وأخلاق) في صورة مجردة ولكنه يأخذها من بوتقة الإسلام مصهورة فيها مختلطة بأصوله. وبذلك فقد يكون أمامنا في الظاهر سلوك ينم عن صفة أو سمة معينة ولكنه في الواقع لا ينطلق من النفس المطمئنة التي تعبر عن الشخصية الصحيحة إسلامياً وإنما ينطلق من النفس الأمانة بالسوء.

يقول رحمه الله في الحديث عن «النفس الأمانة»: <sup>(١٧)</sup>

(١٥) ألبورت (١٩٣٧م) مرجع سابق، ص ١٠٢.

(١٦) انظر بص وفين:

A.H. Buss & S.E. Finn (1987) Classification of Personality Traits.  
Journal of Personality and Social Psychology. 52, 432-44.

(١٧) ابن القيم: الروح، مرجع سابق، ص ٣١٠.

«وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من هذه إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات، وتظهر على الأركان من النفسين الأمانة والمطمئنة فيتباين الفعلان في الباطن ويشتهبان في الظاهر. . . ولذلك أمثلة كثيرة منها المدارة والمداهنة : فالأول من المطمئنة والثاني من الأمانة. وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، وشرف النفس والته، والحمية والجفاء، والتواضع والمهانة، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض، والحمية لله والغضب له والحمية للنفس والغضب لها، والجود والسرف، والمهابة والكبر، والصيانة والتكبر، والشجاعة والجرأة، والحزم والجبن، والاقتصاد والشح، والاحتراز وسوء الظن، والفراسة والظن، والنصيحة والغيبة، والهدية و الرشوة، والصبر والقسوة، والعفو والذل، وسلامة القلب والبله والغفلة، والثقة والغرة، والرجاء والتمني، والتحدث بنعم الله والفخر بها، وفرح القلب وفرح النفس، ورقة القلب والجزع، والموجدة والحقد، والمنافسة والحسد، وحب الرياسة وحب الإمارة والدعوة إلى الله، والحب لله والحب مع الله، والتوكل والعجز، والاحتياط والوسوسة، وإلهام الملك وإلهام الشيطان، والأناة والتسويق، والاقتصاد والتقصير، والاجتهاد والغلو، والنصيحة والتأنيب، والمبادرة والعجلة، والإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى. . . .» (الروح ص ٣١٠).

ولعل الإمام ابن القيم في هذه الفقرة الموجزة التي جمع فيها العديد من السمات قد أبرز المنهج الإسلامي فهو لا يأخذ السلوك الظاهر وحده في الحساب ليبيان ما إذا كانت السمة سوية أو معتلة، وإنما يبحث عن المنطلق الذي تنطلق منه. وهو يرى أن الأفعال تصدر عن الإرادات ويعني هذا أن السلوك الظاهر (الفعل) تحكمه الإرادة وهي (أي الإرادة) جانب معرفي، وهو سبق للعلامة ابن القيم على علم النفس الحديث وبصفة خاصة ما نادت به المدرسة السلوكية من أن الأفعال تخضع لمثيرات خارج الشخص من البيئة وليس لها توجيه داخلي. إلا أن هذه الأفعال في رأي ابن القيم تعود لتفاعل مع البنية السائدة أو الصفة السائدة للنفس فإذا صدرت عن النفس الأمانة فإن مجرى الفعل ومقصده ونتيجته تختلف عما لو صدرت عن النفس المطمئنة فالنفس المطمئنة تدعو صاحبها للتواضع في كل موقف في حين أن النفس الأمانة تأخذ السلوك الظاهر نفسه وتجعله في شكل مهانة أو تصوره لصاحبه بأنه مهانة. وهنا يكون الحكم على السلوك أمراً يرتبط بالصفة الغالية للنفس : مطمئنة؟ أم أمانة؟

ولعل هذا التمييز الذي فصله الإمام ابن القيم حين بدأ في عقد المقارنات بين الأعمال المتشابهة في الظاهر المتباينة في الباطن، وفي ميزان الحكم عليها بين نفس مطمئنة ونفس أمارة، هذا التمييز قائم على علم وأفق واسعين قد تعجز عن الوصول إليه الأساليب الإحصائية التي تعدد مسمياتها بين تحليل عاملي، وتحليل مجموعات Cluster Analysis، وتحليل عاملي توكيدي Confirmatory Factor Analysis، وتحليل للأبنية Structural Analysis وغيرها لأن هذه الأساليب تعتمد على الصورة الظاهرة بل والمزيفة أحياناً من خلال إجابة نمطية على أسئلة مقياس. أما التمييز الذي يقومه العلامة ابن القيم فهو تمييز يعتمد على المنهج الإسلامي الذي يجعل صاحب السلوك ومشاهده يلتقيان على الحكم عليه. ففي المقارنة بين رقة القلب (صورة انفعالية للتعاطف) وبين الجزع الذي قد يكون في ظاهره شبيهاً برقة القلب ولكنه يصدر عن اضطراب شديد، يقول الإمام ابن القيم: (١٨) «والفرق بين رقة القلب والجزع، أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب يمدّه شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولا بدّ كان الجزع عناء مخضاً ومصيبة ثانية، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم». (الحديد: ٢٢، ٢٣)، فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح. ولا ينافي هذا رقة القلب، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلباً وأبعدهم عن الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف.

فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه وضيق عليه مسالك الآخرة وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك. فانهصار القلب وضيقه يجعله يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلاً من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيماً رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها والطير في وكره فضلاً

(١٨) ابن القيم: الروح، مرجع سابق، ص ٣٣٨.

عن بني جنسه فهذا أقرب القلوب من الله. قال أنس: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالعيال. والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن في قلبه الرأفة والرحمة. وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرأفة والرحمة وأبدله بهما الغلظة والقسوة. وفي الحديث الثابت «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» (رواه الترمذي وأحمد) وفيه «من لا يرحم لا يُرحم». (متفق عليه). وفيه: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». (أبو داود والترمذي). . . . (ص ٣٣٨). هكذا في هذه المقارنة الرائعة يتتبع الإمام ابن القيم عمليين أو سلوكيين قد يتشابهان في جانب من دلائلها كالبكاء مثلاً، ولكنها يتباينان في مصدرهما فأحدهما وهو الرقة يصدر عن النفس المطمئنة التي من سماتها الرحمة. أما الثاني وهو الجزع فيصدر عن النفس الأمارة التي من طباعها أو سماتها السخط والهلع مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (المعارج: ١٩-٢٧). وفي فصل آخر من كتابه «الروح» يتناول الإمام ابن القيم بالمقارنة كلاً من الموجدة والحقد، فيقول رحمه الله: (١٩)

«والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعه فهو كمال، وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره. وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه، والحقد لما يناله منك فالموجدة وجود ما نالك من أذاه، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة، فالموجدة سريعة الزوال، والحقد يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس الأمارة ودخانها عليه، بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه». (ص ٣٣٩).

هكذا يرجع الإمام ابن القيم انفعال الموجدة وهو في معناه العام الإحساس بالظلم إلى النفس المطمئنة ويصفه بأنه صفة كمال أو في المفاهيم النفسية الحديثة مظهر من مظاهر الصحة النفسية. بينما يرجع انفعال الحقد وهو من الانفعالات الكدرة الشديدة إلى النفس الأمارة وهو على النحو الذي يظهره به الإمام ابن القيم مظهر من مظاهر المرض والاضطراب النفسي. والموجدة تحرك صاحبها حركة إيجابية لرفع سبب الموجدة في حين أن الحقد وهو

انفعال مركب فيه الكراهية يؤدي إلى الإضرار بالغير وارتكاب ما حرم الله من عدوان.

وفي فصل آخر يعقد الإمام ابن القيم مقارنة بين المنافسة والحسد فيقول: (٢٠)

«والفرق بين المنافسة والحسد، أن المنافسة هي المبادرة إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك فتتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦). وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلباً ورغبة، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه، وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ﴾ (الحديد: ٢١) . . .»

والحسد خلق نفس ذميمة وضیعة وساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٩)، وقال تعالى: ﴿وَدُّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لو يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩). فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة ترتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصاً من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً فإنه سيشبهه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه وهذا لا نذمه . . .» (ص ٣٤٠).

ويمكن أن نخلص إلى القول بأن الإمام ابن القيم قد نظر إلى نفس الإنسان (في ضوء المنهج الإسلامي) على أنها ذات صبغة تجعلها إما مطمئنة وهي النفس التي صقلها الإيمان وألزمت صاحبها التقوى أو أمارة بالسوء وهي النفس التي استسلمت لتزوين الشيطان فأضلت صاحبها وبينها تقف النفس اللوامة التي تساعد صاحبها، على مراجعة ما قام به. وعلى الرغم من أن النفس تشتمل على مجموعة من السمات التي تحكم السلوك فتحركه بداية



وتوجهه في مساره فإن هذا السلوك وهو يصدر عن إرادة يمر على حالة النفس، فإذا صدر عن النفس المطمئنة فإنه سلوك يسعى للكمال وإذا صدر عن النفس الأمارة فهو سلوك مريض يصدر عن نقص وضعف. وبنه ابن القيم إلى أن الأفعال وإن تشابهت في الظاهر فإنها تختلف في الباطن: فالصبر والقسوة قد يتشابهان في بعض مظاهرها كالتحمل والجلد ولكن أحدهما وهو الصبر صادر عن نفس مطمئنة راضية بقضاء الله محتسبة له سبحانه وتعالى، أما الثاني وهو القسوة فهو صادر عن غلظة وخشونة وانعدام في الرحمة والمشاعر الإنسانية وهي صادرة عن نفس يزئ لها الشيطان ويسحرها.

وعلى خلاف ما يراه بعض الباحثين في علم النفس من خضوع هذه الصفات وما يرافقها من أفعال إما لغريزة داخلية (مثل الجنس) أو لمؤثر بيئي خارجي (مثيرات أو معززات في البيئة) فإن الإمام ابن القيم يرى أن هذه الصفات تخضع للإرادة أو لحكم العقل يقودهما في ذلك حكم الشرع بمعنى أنها تخضع لقوة متحدة من «الإيمان والعقل»: يقول رحمه الله: (٢١)

«ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات، وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان في الباطن ويشتهبان في الظاهر، ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة، فالأول من المطمئنة والثاني من الأمارة...»، (الروح ص ٣٠٨، ٣٠٩).

وبمعنى آخر يمكن أن نقول: إن النفس وهي تنمو وتتغذى بالإيمان تصير إلى نفس مطمئنة تعمل على مراجعة ما يرد عليها من خواطر وما يأمرها به العقل من سلوكيات، تعرضها هنا على مصفاة الإيمان الذي نسجت منه هذه النفس، فيقبل ما يوافق ما أمر الله به وينتهي عما نهى الله عنه وتخرج الأفعال ساعية لرضا الله سبحانه وتعالى محقة لرضا صاحبها بها إذا أقدم عليها عالماً بأن فيها مرضاة ربه فيكون بين من ينادون:

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرَضِيَةً فَادْخِلِي فِي عِبَادِي وَادْخِلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).

وأما إذا نمت في طريق الشيطان وأصبحت وقوامها الأمر بالسوء واتباع خطوات الشيطان فإن كل سقطات السلوك وهناته وكل صفائر الصفات ستزينها لصاحبها دافعة به

إلى المهالك، ويكون فيمن قال الله فيهم:  
﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسَعَةٍ﴾ (القمر: ٤٧).

### ثالثاً: الوسطية والاعتدال في شخصية المسلم

يناقش الإمام ابن القيم الحُد المناسب أو المَحمود من الأخلاق والذي ينبغي للمسلم أن يحاول الالتزام به، ويعتبر أن هذا الحُد إذا تجاوزه الفرد دخل إلى الإفراط وإذا قصر عنه كان التفريط وكل من الطرفين يمثل اختلالاً واضراباً، ويعني ذلك أن الاعتدال والتوسط في الصفات والأفعال هو الذي تبنى عليه الشخصية السوية لشخصية المسلم المؤمن. وقاعدة الاعتدال والوسطية من المفاهيم الأساسية في المنهج الإسلامي.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾

(الإسراء: ٢٩).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد»: (٢٢)

«لِلْأَخْلَاقِ حَدٌّ، مَتَى جَاوَزَتْهُ صَارَتْ عَدَوَانًا، وَمَتَى قَصُرَتْ عَنْهُ كَانَتْ نَقْصًا وَمِهَانَةً، فَلِلْغَضَبِ حَدٌّ وَهُوَ الشَّجَاعَةُ الْمَحْمُودَةُ وَالْأَنْفَةُ مِنَ الرِّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ، وَهَذَا كِمَالُهُ (أَي كِمَالُ الْغَضَبِ)، فَإِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ تَعَدَّى صَاحِبُهُ وَجَارًا، وَإِنْ نَقَصَ عَنْهُ جَبَنَ وَلَمْ يَأْنِفْ مِنَ الرِّذَائِلِ. . . وَلِلْحِرْصِ حَدٌّ هُوَ الْكَفَايَةُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَحَصُولُ الْبَلَاحِ مِنْهَا، فَمَتَى نَقَصَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ مِهَانَةً وَإِضَاعَةً، وَمَتَى زَادَ كَانَ شَرًّا وَرَغْبَةً فِيهَا لَا يَحْمَدُ الرِّغْبَةَ فِيهِ.

وَلِلْحَسَدِ حَدٌّ، وَهُوَ الْمُنَافَسَةُ فِي طَلَبِ الْكِمَالِ وَالْأَنْفَةِ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ نَظِيرُهُ فَمَتَى تَعَدَّى ذَلِكَ صَارَ بَغِيًّا وَظَلَمًا يَتَمَنَّى مَعَهُ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ وَيَحْرِصُ عَلَى إِيْذَانِهِ، وَمَتَى نَقَصَ عَنِ ذَلِكَ كَانَ دَنَاءَةً وَضَعْفَ هِمَّةٍ وَذَلَّةَ نَفْسٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا النَّاسُ» - فَهَذَا حَسَدٌ مُنَافَسَةٌ يَطَالِبُ الْحَاسِدُ بِهِ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْمَحْسُودِ لَا حَسَدَ مِهَانَةٍ يَتَمَنَّى بِهَا زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ. . .».

(٢٢) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) الفوائد، القاهرة: مكتبة المتنبي، دون تاريخ، ص ١٣٩-١٤٢.

«للمراجعة حد، وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توائماً وكسلاً وإضاعة وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضرّاً بالقوى موهناً لها وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . . .» (ص ١٣١-١٤١).

ويحدد الإمام ابن القيم رحمه الله الضابط الذي يحدد لنا القدر الأمثل من الصفات أو الأفعال فيقول: (٢٣)

«ضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به، فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر، والأكل والشرب، والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك إذا كانت وسطاً بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصاً وأثمرت نقصاً. فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود. . .» (الفوائد: ص ١٤١).

ويناقش في موضع آخر أهمية تلبية حاجات الروح الموصلة لسعادة الآخرة بجانب حاجات النفس أي تلبية مطالب الآخرة مع مطالب الدنيا، فيقول: (٢٤)

«لذة كل أحد حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همّة وأرفعهم قدراً مَنْ لَذَّتْهُ في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه فلذته في إقباله عليه، وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله . . . وأكمل الناس من جمع بين لذة القلب الروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (الأعراف: ٣٢). وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه تحول

(٢٣) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٢٤) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٥٠.

بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات ﴿أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ (الأحقاف: ٢٠) فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة وسواء أذن لهم فيه أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا، وفاتتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم» (الفوائد: ص ١٥٠).

ويحدد الإمام ابن القيم الطريق الموصلة لهذا التوازن وهو أن يجعل المرء إشباع دوافعه وحاجاته (الحصول على اللذة) في الدنيا طريقاً موصلاً إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله، إرادته وعبادته، وأن يكون الوصول إلى هذه اللذة (لذة البدن أو لذة الدنيا) بشكل لا ينقص حظه في الآخرة وطريق ذلك ترك الذنوب والمعاصي. وحول هذا الجانب أي ترك الذنوب والمعاصي وما يترتب عليه من فوائد يقول رحمه الله: (٢٥)

«فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة وظفر بها جميعاً وإلا خسرهما (يعني الدنيا والآخرة) جميعاً، سبحانه الله رب العالمين: لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش وراحة البدن، وقسوة القلب وطيب النفس ونعيم القلب وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار وتيسير الطاعات عليه، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس وكثرة الدعاء له والخلاوة التي يكتسبها وجهه والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أؤذي وظلم وذلبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت بل يفرح به لقدمه على ربه ولقائه له ومصيره إليه. وصغر الدنيا في قلبه وكبر الآخرة عنده وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق خلاوة الطاعة، ووجد خلاوة الإيمان ودعاء حملة العرش

ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتيين به ودعائهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (الفوائد ص ١٥١، ١٥٢).

ولعلنا من هذه الوقفات مع الإمام ابن القيم نرى كيف ينظر إلى شخصية المسلم على أنها شخصية تسودها حالة الاطمئنان أو صفة النفس مطمئنة وهذه النفس تتبع منها أمهات الأخلاق وهي نفس اطمأنت بالإيمان بالله واتباع ما شرعه من الدين، وتزينها أمهات الأخلاق مثل الصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والفناعة والصدق وغيرها. وهذه الصفات لها ظاهر قد يتشابه معها فيه مقابل لها، كان هذا المقابل ينبع من النفس الأمارة فهو مقصود لغير الله وهو كذلك مضيع لصاحبه مورد له موارد التهلكة. ثم إن الإمام ابن القيم يضع حدوداً للأخلاق إن زادت عنها دخلت إلى الإفراط وإن قصرت عنها دخلت إلى التفريط وهذا الحد هو حد العدل أو التوسط بين طرفين مذمومين، ولعل أقرب الأمثلة على ذلك فضيلة أو خلق الشجاعة، فزيادتها تعني عدم تقدير الموقف تقديرًا مناسبًا والإقدام على التهلكة ولذلك يسمى ذلك «تهورًا» لا ينتمي إلى الشجاعة، ونقصها سيؤدي بصاحبه إلى التقاعس حتى عن مواجهة أيسر المواقف أو أكثرها إلحاحًا للمواجهة ويعتبر ذلك «خورًا وانهزامًا».

ويجمع ابن القيم شتات الصفات وأصول الأخلاق المحمود منها والمذموم تحت مجموعات عامة فيقول رحمه الله: (٢٦)

«أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدنائة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها

الخشوع وعلو الهمة.

فالفخر، والبطر، والأشر، والعجب، والحسد، والبغي، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض، وإباء قبول النصيحة، والاستثثار، وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة وأن يحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر، وأما الكذب، والخسة، والخيانة، والرياء والمكر، والخديعة، والطمع، والفزع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة، والعفة، والصيانة، والجلود، والحلم، والعفو، والصفح، والاحتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع، والقناعة، والصدق، والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة...». (الفوائد ١٤٤).

وقد علق الإمام ابن القيم أصول الأخلاق المحمودة على وجود همة عالية، ونية صحيحة، تدفعان صاحبهما إلى طلب كل رفيع من الأخلاق والعلو بها عن الدناءة والمهانة وصغر النفس، وكأننا بآبِن القيم يتحدث عن دافع للارتقاء الخلقي بديل عما يتحدث عنه الباحثون في علم النفس من وجود دافع للإنجاز، ودافع الهمة العالية دافع يرتبط بالجانب الديني الذي يجعل الفرد يرتفع بنفسه عن الدنيا. يقول رحمه الله في هذا الصدد (٢٧).

«المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة، فمن فقد همة تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره (أي تعلقت بالله وحده) وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق، والهمة تفرد له المطلوب فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته. وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقة غير موصلة إليه، فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبة وطريقة لا يتم له إلا بترك ثلاثة أشياء:

الأول: العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس.

الثاني: هجر العوائق التي تعوقه عن أفراد مطلوبة وطريقه أو قطعها.

(٢٧) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٤٥.

الثالث: قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب .  
والفرق بينهما (أي بين العوائق والعلائق) أن العوائق هي الحوادث الخارجية والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها وأصل ذلك ترك الفضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والنام والخلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه، ويرفض من التعلقات القلبية ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه والله المستعان». (الفوائد ص ١٤٤، ١٤٥).

ولعلنا نلمس في هذا العرض للإمام ابن القيم أنه حدد المتغيرات الثلاثة التي تؤثر في سلوك الإنسان وهي ما يجده من مجتمعه، ويدخل في تشبثه وصياغة أساليب تفكيره وانفعالاته وأفعاله، وما يقابله في البيئة من عوائق تعرقل طريقه، وما يوجد داخل نفسه من علائق.

ولعل هذا التفريق الدقيق بين العوائق والعلائق هو ما يحاول بعض الباحثين النفسيين في الوقت الراهن أن يخصصه بجانب من الدراسات الميدانية وتحت مسمى العوائق الشخصية أو الذاتية Self Handicapping وشتان بين ما يبحثون من جوانب مثل الخجل والقلق والمخاوف والغضب في معزل عن معيار الشرع وبين ما يتناوله الإمام ابن القيم آخذاً في اعتباره دائماً جانب الشرع الذي يحدد لنا العوائق والعلائق والبدع وغيرها مما يفسد على الإنسان سبيل الهدى.

#### رابعاً: الجوانب المعرفية للشخصية

الجوانب المعرفية Cognitive هي الجوانب المرتبطة بالعمليات العقلية وما يرتبط بها من مدخلات مثل الإحساس، وما ينتج عنها من نواتج مثل اللغة، وما بين ذلك من عمليات الإدراك والحفظ والتذكر والتفكير وغيرها.

لقد أغفل علم النفس الحديث موضوع العمليات المعرفية ردحاً طويلاً من الزمن وخاصة حين سيطرت المدرسة السلوكية على فكر الباحثين النفسيين، فقد أعطت للبيئة الدور الأول والأخير في توجيه سلوك البشر بعد استثارتها، وجعلته مجرداً من كل إرادة وتفكير، وتوهمت أنه يسير في استجاباته كما يستجيب أي كائن حي أدنى منه تبعاً لقوانين الإشراف (الكلاسيكي والإجرائي). وقد بدأ الباحثون في محاولة لتدارك ما فات بإدخال العمليات العقلية كمتغيرات وسيطة بين المثيرات والاستجابات. وقد سبق علماء المسلمين،

الباحثين في علم النفس إلى النظر إلى العمليات المعرفية على أنها المحرك الأساس للسلوك والانفعال، يقول الإمام ابن القيم: (٢٨)

«مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة. فصالح هذه المراتب بصالح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. فصالح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإنها صاعدة إليه دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء، فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته وإنزاله إياه حاضراً معه مشاهداً له ناظراً إليه رقيباً عليه مطلعاً على خواطره وإرادته وهمه، فحينئذ يستحي منه ويحمله أن يطلع منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله، أو يرى في نفسه خاطراً يمقته عليه (الفوائد ص ١٧٣).

ويتابع ابن القيم حديثه فيقول في موضع آخر:

«واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد فواتها وتتمامها». (الفوائد ص ١٧٤).

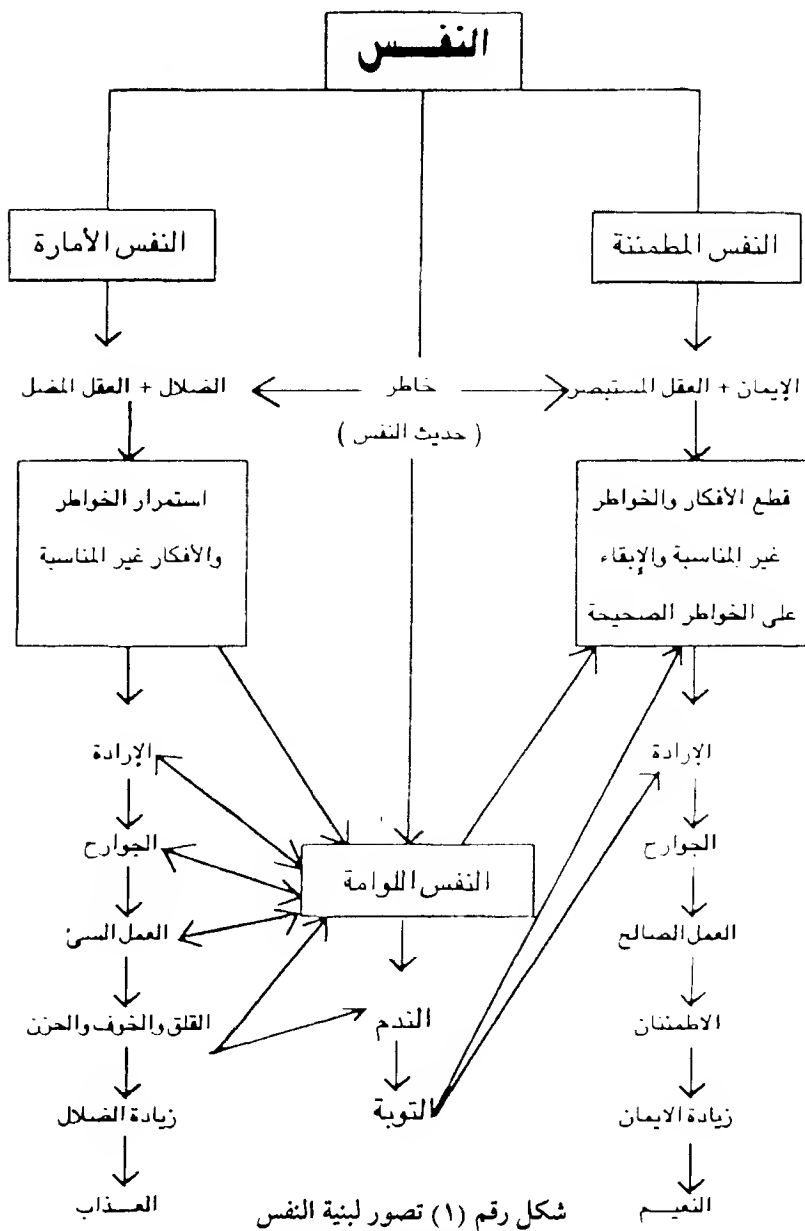
إن الإمام ابن القيم يحدد لنا بناء على هذا النموذج الذي يدل على نبوغ عظيم. [انظر شكل رقم (١)] إن الخواطر والأفكار هي البداية، وأنها تدخل المجال الإدراكي للفرد وتنمو لتصبح تصوراً لإجراءات وترجمها الفرد إلى إرادات تدفعه إلى سلوكيات تقوم بها الجوارح، ومع تكرار السلوك يصبح عادة يقوم بها الفرد بعد ذلك بشكل تلقائي دون حاجة إلى هذه السلسلة. ويرى الإمام ابن القيم أن المؤمن يعرض هذه الخواطر على ميزان داخلي يشتمل على عاملين أو قوتين هما قوة الإيمان وقوة العقل وهما متفاعلتان ومتكاملتان في عملهما.

يقول رحمه الله: (٢٩)

(٢٨) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢٩) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٧٤.





«ومعلوم أنه لو لم يعط الإنسان إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى رفع أقبحها وكراهته له ونفرتة منه كما قال الصحابة: يارسول الله إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حُمَةً أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: أوقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صريح الإيمان». (الفوائد ص ١٧٤).

هكذا فسر لنا ابن القيم مبعث السلوك الظاهر بدءاً من الخاطر أو الفكرة، وحدد لنا أيضاً كيفية الوقاية من الوصول إلى عادة تتمكن من الشخص ويصعب عليه التخلص منها. ويؤكد الإمام ابن القيم أن الخواطر وتواردها على ذهن الفرد خصيصة من خصائص الإنسان لا يمكن الانفكاك عنها، وإنما كل ما يمكن أن يفعله هو أن يستبصر في هذه الخواطر ويعرضها على المحك الأساس وهو الإيمان مستخدماً العقل في الحكم على استيفائها لشروطه (الإيمان).

يقول رحمه الله في هذا الجانب: (٣٠)

«وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهاً بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه فإن وضع فيها حب طحنته وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لابد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاء حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً ونحو ذلك فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه. (الفوائد ص ١٧٤).

ولعل ما نادى به الإمام ابن القيم منذ حوالي سبعة قرون من أن أساس العلاج يكمن في منع الخواطر الفاسدة من أن تتمكن من الإرادة والجوارح فتصبح عادة، هو ما ينادي به اليوم المعالجون في المدرسة المعرفية Cognitive والتي تعتبر أحدث مدارس العلاج النفسي، ومن بين روادها ألبرت ايليس، وميكنوم، وبيك وريمي الذين ينادون بتصحيح الأفكار والخواطر والتصورات للوصول إلى تصحيح التصرفات والمشاعر (٣١).

(٣٠) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٣١) للاطلاع على هذه النظريات انظر باترسون:

أما الفرق الجوهرى فإن هؤلاء يحددون فساد الأفكار والخواطر والتصورات على أساس شخصي قد لا يتفق عليه شخصان، أما عالمنا الإمام ابن القيم فإنه يحدد المعيار الذي نقيس إليه كل هذه الجوانب وهو معيار الإيمان والعقل. يقول رحمه الله: (٣٢) «فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكراً جوالاً، فاستخدم الإرادة فتساعده هي والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالمنى والشهوة وتوجهه إلى جهة المراد، ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد. فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعينك دون ما لا يعينك فالفكر فيما لا يعنى باب كل شر. ومن فكر فيما يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تتعد بها أو تقرب من إلهك معبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربهِ ورضاه عنك وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئاً خسيساً لم يكن في سائر أمره إلا كذلك. وإياك أن تمكّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه ويلقي إليك أنواع الوسوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك وأنت الذي أعتته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك. (الفوائد، ص ١٧٥).

لعل الإمام ابن القيم يرحمه الله قد لمس حجم ما يمكن أن يمثل المنهج الوقائي في الإرشاد والعلاج النفسي والذي يفرض كذلك إلى المنهج العلاجي. وقد جعل مراقبة الخواطر والأفكار العنصر الأول في هذا الطريق الوقائي والعلاجي. ولأن معيار المسلم المؤمن هو معيار الشرع، معيار الإيمان والعمل الصالح، ووسيلته في إدراك مدى البعد أو القرب عن هذا المعيار أو هذا الميزان هو العقل، لذا فقد جعل الإمام ابن القيم الإيمان والعقل بمثابة أداة واحدة متفاعلة يستخدمها المسلم في مراقبة خواطره وأفكاره والحكم عليها وتحديد مدى

= وانظر كذلك الشناوي، محمد محروس، نظريات الإرشاد والعلاج النفسي، القاهرة: دار غريب

للطباعة والنشر ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٣٢) ابن القيم: الفوائد، مرجع سابق، ص ١٧٥.

موافقتها للشرع والعقل فإذا تبين له فساد هذه الأفكار والخواطر يبعدها عن حكم الشرع فإن عليه أن يقطعها من بدايتها قبل أن تأخذ مجراها إلى العمل الظاهر، وأما إذا تبين له صلاح هذه الخواطر والأفكار بموافقتها لحكم الشرع ومقتضى الإيمان فإنه يمضي في طريق تنفيذها عملياً.

إن المعالجين النفسيين يحاولون اليوم استخدام مجموعة من الأساليب المعرفية لوقف الأفكار السيئة ولإلغاء المعتقدات الخاطئة ولتغيير التصورات المشوشة ولتحسين نظرة الإنسان إلى عالمه وإلى نفسه، ويضعون هذه الأساليب تحت مسميات مثل وقف الأفكار Rational Emotive Thought Stopping (وولبيه Wolpe)، والعلاج العقلاني الانفعالي Rational Emotive Therapy (ايليس Ellis)، وأسلوب الحديث الذاتي Self Speech والتحصين الذاتي ضد الضغوط Stress Inoculation (ميكينبوم Meichenbaum) وتصحيح التصورات الخاطئة Misconceptions (ريمي Rimmy) والعلاج المعرفي Cognitive (بيك Beck) وضبط النفس Self Control (نوفافو Novaco). - وهذه كلها يمكن أن تندرج تحت الأسلوب الذي اقترحه الإمام ابن القيم من مراقبة الخواطر والأفكار وقطعها من بدايتها مع وجود اختلاف مهم كما قلنا من قبل وهو أن الإمام ابن القيم قد حدد المعيار (الميزان) الذي نقيس إليه الأفكار والخواطر لنحكم على صلاحها فنقبلها أو بفسادها فنقطعها ونسد عليها الطريق، وهذا الميزان هو ميزان الإيمان ميزان الشرع، كما حدد الأداة التي نستخدمها في المعايرة أو القياس وهو العقل، فالعقل يرجع إلى الشرع ليصدر الحكم. أما وولبيه وإيليس وبيك وغيرهم فلم يحددوا لنا معياراً واحداً يتفقون عليه أو حتى يمكن أن يلتقي عنده المعالج أو المرشد مع المريض، أو المسترشد، إنما هذه المعايير تخضع لحكم المعالج وربما لمعتقداته وثقافته مع كون كثير منهم يتخذ موقفاً معادياً للدين أو في أيسر الأحوال لا يدخله في اعتباره.

وبذلك تتضح لنا قوة الأسلوب الإسلامي كما يصوره الإمام ابن القيم، فالمعيار فيه معيار عالٍ لم يضعه بشر وإنما تنزل به الوحي قرآنًا يُتلى، وأرشدنا إليه رسول الله ﷺ في سنته المطهرة، ومن هنا فإن المسلم المؤمن الذي يمر بمثل هذه الخبرة، خبرة فكرة أو خاطر يعرضه على معيار الشرع فيلمس فساداً ثم يقوم بقطعه بأن يوقف مجراه، فإنه سيعايش خبرة خاصة ملؤها الإحساس بإشراقة الهدى وطمأنينة النفس.

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد: ٢٨).

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾  
(الأعراف: ٢٠١).

هذا الإحساس الذي ينبعث من نفس المؤمن حين يرد كيد الشيطان ويقطع عليه طريقه بإدراك واع منه بأساليب الشيطان وحيله وإدراك واع منه بأن الرجوع إلى الحق وإلى الصراط المستقيم إنما هو عودة إلى حظيرة الإيمان، هذا الإحساس لاشك يتفوق كثيراً على إحساس مسترشد يرضخ لتفسيرات المعالج ويصد الأفكار أو الخواطر لمجرد أنها تنغصه وأن المعالج يفسرها له على أنها خاطئة أو غير منطقية دون معيار واضح وثابت يرجعان إليه ويتفقان عليه... إن هذا الإحساس الذي ينبعث من نفس المؤمن حين يقطع الطريق على أفكار وخواطر فاسدة إنما ينبعث من فطرة سليمة فطرة تسلم الوجه لله وتدين بالعبودية له وحده سبحانه وتعالى، وهي بذلك تستقبل هذا الموقف بفرح الضال الذي عاد إلى الطريق. وهذه المقتطفات التي أوردناها من كتاب الفوائد إنما هي تمثل نموذجاً من كتابات الإمام ابن القيم في الجوانب المعرفية ودقة صياغته لها وتحديد عناصرها وتفاعلاتها ونواهجها. وللإمام ابن القيم عديد من اللمسات في هذا الجانب، ولعل المناقشة المستفيضة التي أوردتها في مؤلفه إعلام الموقعين على الرغم من أنها جاءت في الحديث عن الفقه وأصوله إنما تدل على سعة علم بهذه العمليات المعرفية التي ما زال علماء النفس المحدثون يجدون صعوبة في وصفها. ونحيل القارئ الكريم إلى الفصل المتمع الذي كتبه عن القياس وما يليه من فصول حول الموضوع نفسه ثم حديثه عن الأمثال.

يقول رحمه الله: (٣٣)

«وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت: ٤٣). فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل، وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما. قالوا: ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين فإنه إما استدلال بمعين على معين، أو بمعين على عام أو بعام على معين أو بعام على عام، فهذه الأربعة هي مجامع ضروب الاستدلال»، (إعلام الموقعين، ج ١، ص ١٣١).

(٣٣) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) إعلام الموقعين عن رب العالمين، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٣١.

ويقول في موضع آخر:

«والأقيسة المستعملة في الاستدلال ثلاثة: قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه، وقد وردت كلها في القرآن». (ص ١٣٢).

ويمضي بعد ذلك ليناقد كل نوع من هذه الأقيسة في استفاضة رائعة، وتعتبر ذخيرة للباحثين المجدين الذين يتناولون العمليات المعرفية بالتحليل.

وفي مؤلفه مدارج السالكين نجد الإمام ابن القيم يتناول بالشرح والتفريق مجموعة كبيرة من المصطلحات التي تدخل في سلوك الإنسان مما يتناوله الباحثون النفسيون في دراساتهم، وهو يعمل فيها فكره وسعة علمه حتى إنها تصبح في رأينا ضرورة للباحث النفسي المسلم.

يقول رحمه الله: (٣٤)

«التذكر والتفكير».

قال صاحب المنازل:

«التذكر فوق التفكير، لأن التفكير طلب والتذكر وجود».

و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان، وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء الفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج - كالتبصر والتفهم والتعلم. «أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة». (مدارج السالكين، ج ١، ص ٤٧٤ - ٤٨٨).

خامساً - الانفعالات (السلوك الوجداني)

تعتبر الانفعالات جانباً مهماً من جوانب سلوك الإنسان وحياته النفسية، وهي تشتمل على الجوانب النزوعية (التصرفات) والجوانب المعرفية (العمليات العقلية) والجوانب الوجدانية (الانفعالات والعواطف). وتمثل الانفعالات استجابات بدنية ونفسية إزاء موقف أو مثير معين، وهي قد تكون سارة كما قد تكون مكدرّة، ويطلق البعض على الحالات الخفيفة من الانفعالات اصطلاح الوجدان أو الشعور Feeling بينما يحتفظون باصطلاح الانفعال Emotion للحالات الشديدة.

(٣٤) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ١ ص ٤٧٤ - ٤٨٨. وصاحب المنازل يقصد به الهروي مؤلف كتاب منازل السائرين.

ويعرف الانفعال بأنه: «اضطراب حاد يشمل الفرد كله ويؤثر في سلوكه وخبرته الشعورية ووظائفه الفيزيولوجية الداخلية، وهو ينشأ في الأصل عن مصدر نفسي، ونقول إن الانفعال اضطراب حاد لأنه يتميز بحالة شديدة من التوتر والتهيج، ولأنه أثناء الانفعال تتعطل جميع أنواع النشاط الأخرى التي يقوم بها الإنسان، ويصبح نشاطه كله مركزاً حول موضوع الانفعال. ويشتمل الانفعال على مجموعة من المكونات هي:

- ١ - إدراك الموقف الانفعالي.
- ٢ - التغيرات الفيزيولوجية الداخلية.
- ٣ - التغيرات البدنية الخارجية.
- ٤ - الخبرة الشعورية.
- ٥ - التوافق للموقف الانفعالي». (نجاتي، ١٩٨٤م، ص ١٠٠).

والانفعالات من حيث هي استجابات تعتبر من نعم الله على الإنسان ليواجه المواقف المتنوعة بما يناسبها من تصرف، فالخوف يساعد على التصرف بما يوافق النجاة من الأخطار، والغضب يهيئ الإنسان لرد العدوان الواقع على ما يحبه وفي مقدمتها دينه ونفسه وعقله وعرضه ونسله وماله.

لقد تناول الإمام ابن القيم الانفعالات والمشاعر في مواضع شتى من مؤلفاته. وقد مر بنا حديثه عن مجموعة منها مثل الجزع والحقد والحسد والموجدة والغضب وغيرها حين عقد المقارنة بين ما يشتهه على الإنسان وما يصدر عن النفس الأمارة في مقابل ما يصدر عن النفس المطمئنة، وكذلك عندما تحدث عن حد الأخلاق، كما تحدث الإمام ابن القيم عن الانفعالات والمشاعر التي يمر بها الإنسان في مواقف شتى خاصة عندما يمرض القلب وتسيطر على النفس أهواؤها ثم عند أوبه ورجوعه إلى ربه وصد الشيطان وسد الطريق على سالكه له. ومن المؤلفات التي تحدث فيها عن هذه المواقف كتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، وكتاب الفوائد، وغيرها. وفي مؤلفه مدارج السالكين نجده يفرد فصلاً ممتعة للحديث عن مجموعة كبيرة من الانفعالات والمشاعر بل ويمضي وراء ذلك إلى التفريق بين المسميات المختلفة كالتفريق بين الرجاء والتمني، وبين الخوف والخشوع والوجل

والإخبات، كما يتحدث عن الحزن وعن الحياء والسكينة والطمأنينة، والمحبة والشوق، والقلق، والوجد، والسرور، والغربة والاغتراب... إلخ.

فحين يتحدث عن الطمأنينة يقول: (٣٦)

«الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه» (مدارج السالكين ج ٢ ص ٥٣٤).

وحين يتحدث عن السكينة يقول: (٣٧)

«وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة الخوف فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات» (ج ٢ ص ٥٢٥).

ويقول عن الحياء: (٣٨)

«الحياء من الحياة، ومنه الحياء للمطر لكن هو مقصور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم». (ج ٢، ص ٢٧٠).

ويعود بعدها فيقسم الحياء إلى عشرة أقسام أو أنواع: حياء جنانية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحي من نفسه.

وحين يقارن بين «الخوف» و«الخشية» و«الرغبة» و«الوجل» و«الهيبة» يقول: (٣٩)

● الخوف: هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

● والخشية: أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى

الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨)، فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية». فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان:

(٣٦) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ٢ ص ٥٣٤.

(٣٧) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ٢ ص ٥٢٥.

(٣٨) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٧٠.

(٣٩) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ٢ ص ٥٤٩، ٥٥٠.



- \* أحدهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف .
- \* والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية: ومنه انخس الشيء .
- وأما الرهبة: هي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه . . .
- وأما «الوجل»: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته .
- وأما «الهيبة»: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة .
- و«الإجلال»: تعظيم مقرون بالحب . . . (مدارج السالكين ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠) .

#### سادساً - الفروق الفردية

على الرغم من وجود عناصر مشتركة بين البشر تحدد معالم شخصياتهم فإن هناك جوانب عديدة تفرق بينهم حتى يصبح لكل واحد منهم شخصيته التي نعرفه بها . وكما حدد الإمام ابن القيم المعالم العامة للشخصية حين تحدث عن حالات النفس المطمئنة، واللومة، والأمانة، وكما عاد فجمع أصول الأخلاق المحمودة في الخشوع وعلو الهمة، وجمع أصول المذموم من الأخلاق في الكبر والمهانة والدناءة، فإنه يحدد أن هناك فروقاً بين الأفراد وبعضهم البعض يجب أن تؤخذ في الاعتبار سواء في جوانب الدين أو جوانب الدنيا .

يقول في كتابه تحفة المودود: (٤٠)

«وما ينبغي أن يعتمد حال الصبي، وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه؛ وفاته ما هو مهيأ له؛ فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك؛ جيد الحفظ واعياً؛ فهذه من علامات قبوله وتبيته للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً

(٤٠) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) تحفة المودود بأحكام المولود، دمشق: مكتبة دار البيان ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، ص ٢٤٣، ٢٤٤ .

فإنه يتمكن فيه، ويستقر، ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي، واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يخلق له مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعداً لها، قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها، هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابعة والله أعلم». (تحفة المودود ص ٢٤٣، ٢٤٤).

هكذا يلمس الإمام ابن القيم في هذا العرض الموجز ما يتحدث عنه الباحثون الآن تحت مفهوم الفروق الفردية والذي يعتبر مبدأً يستخدم في التعليم، والإرشاد النفسي والمهني وفي التوجيه التربوي والخدمة الاجتماعية والطب النفسي وغيرها. وقد أشار بصفة خاصة إلى الاستعدادات التي تعتبر نقطة الانطلاق لمجالات الحياة والتي باعتبارها يدخل الأفراد إلى ما يناسبهم من التعليم والعمل، وهذه الاستعدادات هي التي تتحول إلى قدرات نتيجة التدريب. كما يعتبر هذا الذي تحدث عنه الإمام ابن القيم سبقاً كبيراً فيما يعرف الآن بالإرشاد المهني وعلم النفس المهني والذي يرجعه كثير من الباحثين إلى الفكرة التي نادى بها الأمريكي بارسونز في كتابه كيف تختار مهنة (١٩٠٩م)<sup>(٤١)</sup> والذي يقوم على فكرة الرجل أو الشخص المناسب للعمل المناسب، وهذا المعنى قد جمعه الإمام ابن القيم في عبارته السابقة.

#### سابعاً: نمو الشخصية

لم يهمل الإمام ابن القيم الحديث عن نمو الشخصية ولعله - كما كان في كثير مما تحدثنا عنه من جوانب الشخصية - له سبق أيضاً في التحدث عن أهمية مرحلة الطفولة في حياة الشخص وعن الدور الذي يلعبه الآباء في تكوين شخصية الأبناء كما تحدث أيضاً عن مراحل النمو وقسمها إلى مراحل متعاقبة أعطى كل منها اسماً مميزاً. وربما يكون مؤلفه «تحفة المودود بأحكام المولود» من أمتع الكتب التي تناقش نمو الإنسان منذ كونه جنيناً. يقول رحمه الله: (٤٢)

(٤١) بارسونز: F. Parsons (1909) Choosing a Vocation. Boston: Houghton Mifflin.

(٤٢) ابن القيم: تحفة المودود: مرجع سابق، ص ٢٤١.

«وما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ على ما عوده المري في صغره من حَرَدٍ وغضبٍ ولَجَاجٍ وعجلة وخفة مع هواه، وطيش وحدة، وجشع فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز، فضحته ولا بد يوماً ما. ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأوا عليها. وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء، وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عَسُرَ عليه مفارقتها في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، ويحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية والخروج عن حكم الطبيعة عسر جداً...» (ص ٢٤٠، ٢٤١).

هكذا نجد الإمام ابن القيم يتحدث عن التنشئة الاجتماعية ودور الأبوين فيها، وكيف أنها قد يدعان في الإبن سلوكاً فاسداً كما أنها قد يعرضانه لنماذج سيئة يتعلم منها ويقلدها، ويؤكد دور التربية ودور الوقاية.

أما في حديثه عن مراحل النمو فإنه يستهله بالحديث عن مرحلة الحمل وكون الفرد فيها جنيناً، ويتحدث عن تطور الجنين استناداً إلى الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن الرسول ﷺ، ثم تحدث بعد ذلك عن سبب الشبه بالأبوين أو أحدهما وسبب الإذكار والإيناث، وفي هذا الجانب يسجل ابن القيم للمسلمين السبق في جوانب كثيرة لم تكن معروفة لغيرهم مثل كون الإنسان مخلوقاً من نطفة الذكر ونطفة الأنثى، كما يقرر القرآن ذلك. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن سن التمييز وهو حوالي سبع سنين، ثم في سن العاشرة حيث يضرب على ترك الصلاة كما أمر به النبي ﷺ وهذا ضرب تأديب وتمرين» (ص ٢٩٦). ثم في المرحلة بعد العشر إلى سن البلوغ يسمى مراهقاً مناهزاً للاحتلام، ثم البلوغ ثم الرشد من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، ثم يبدأ في الضعف. ويربط ابن القيم بين مراحل النمو ومجموعة من الأسماء التي تطلق عليها فيقول: (٤٣)

«ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدرج، كما أخذ في زيادتها على التدرج. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (الروم: ٥٤). فقوته بين ضعفين، وحياته بين موتين،

فهو أولاً نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم جنيناً مادام في البطن، فإذا خرج فهو وليد، فما لم يتم سبعة أيام فهو صديغ؛ لأنه لم يشتد صدغه، ثم مادام يرضع فهو رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو فطيم، فإذا دب ودرج فهو دارج، قال الرازي:

(يا ليتني قد زرت غير خارج) أم صبي قد جبا ودارج

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو: خماسي، فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور، وقد ثغر، فإذا نبتت بعد سقوطها فهو مُثْغَر (بوزن مدَّكر)، بالتاء والثاء معاً، فإذا بلغ السبع وقاربها فهو مُمِيز، فإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشيء، فإذا قارب الحلم، فهو يافع ومراهق، ومناهز للحلم، فإذا بلغ فهو بالغ، فإذا اجتمعت قوته فهو حزور واسمه في جميع ذلك غلام ما لم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره في الطلوع، فهو باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى وشارخ بحصول شرخ الشباب له، فإذا اجتمعت لحيته فهو شاب إلى الأربعين، ثم يأخذ في الكهولة إلى الستين، ثم يأخذ في الشيخوخة، فإذا أخذ شعره في البياض قيل شاب، فإذا ازداد قيل وخطه الشيب، فإذا زاد قيل شمس، فإذا غلب شبيه فهو أغثم، فإذا اشتعل رأسه ولحيته شيباً فهو متقعوس، فإذا انحط قواه فهو هرم، فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصه فقد رد إلى أرذل العمر، فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم» (تحفة المودود ص ٣٠١، ٣٠٢).

ولا يقف الإمام ابن القيم في كتابه «تحفة المودود» عند الحديث عن مراحل النمو والنصائح التي يوجهها للآباء في التعامل مع أبنائهم ومسئوليتهم في ذلك، بل يتناول بالحديث ما يعترض الطفل من مشكلات<sup>(٤٤)</sup>.

«وينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر الفظيعة، والحركات المزعجة، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها، فلا ينتفع بها بعد كبره، فإذا عرض له عارض من ذلك، فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده، وإيناسه بما ينسيه إياه، وأن يلقم ثديه في الحال، ويسارع إلى رضاعه ليزول عنه ذلك المزعج له، ولا يرتسم في قوته الحافظة، فيعسر زواله، ويستعمل تمهيداً بالحركة اللطيفة إلى أن ينام، فينسى ذلك، ولا يهمل هذا الأمر، فإن في إهماله إسكان الفزع والرُّوع في قلبه، فينشأ على ذلك ويعسر زواله ويتعذر». (تحفة المودود، ص ٢٣٣).

(٤٤) ابن القيم: تحفة المودود: مرجع سابق، ص ٢٣٣.

ولعل هذا النموذج الذي أورده الإمام ابن القيم يشتمل على كل ما يحاوله المعالجون النفسيون في الوقت الحالي لمعالجة الخوف، وفيه جانب الوقاية مقدم على جانب العلاج، ثم العلاج بالتطمين بالضد، أو ما يعرف الآن بالعلاج «بالكف بالنقيض والتخلص من الحساسية»، عن طريق إرضاع الطفل من أمه وإيناسه بما ينسيه الفزع وهو يناسب أيضاً أسلوب التشيت أو الإشغال Distraction وهذا النموذج الذي ينصح به الإمام ابن القيم يماثل الأساليب التي نتجت عن تجارب ماري كوفر جونز (١٩٢٤م)، وجوزيف وولبييه (١٩٥٨م) للإشراف المضاد Counter Conditioning والكف بالنقيض Reciprocal Inhibition، وما هو جدير بالذكر أن الإمام ابن القيم قد اعتبرها علاجاً بالضد «فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده».

#### ثامناً: اضطرابات الشخصية

رأينا عبر هذه الدراسة كيف أقام الإمام ابن القيم تصوره للسلوك البشري على أساس من المنهج الإسلامي وأن النفس تشتمل في بنيتها على أركان: أمانة، ومطمئنة، ولوامة. وأن نمو الفرد في أحضان الإيمان وعرضه لخوابره وأفكاره على ميزان الإيمان والعقل يجعله يقبل الصالح منها ويرفض الفاسد فتسود لديه حالة النفس المطمئنة ويصبح الالتزام الإيماني أمراً سهلاً ليس فيه مشقة وعادة مألوفة يشعر معها بالسعادة واللذة بتحقيق وإشباع مطالب بدنه ومطالب آخرته، وهذا هو نسيج الصحة النفسية للمسلم. أما إذا غلبت على الفرد النفس الأمانة بالسوء وتمكن الشيطان منه، وأضله عقله بعد الالتزام بحكم الشرع وميزان الإيمان، فإن الأعمال تختلط عليه حتى يرى سيئها أحسنها، ومآله الذي لا مفر منه الاضطراب، والذي يطلق عليه الإمام ابن القيم في كثير من مؤلفاته مرض القلب.

لقد خصص الإمام ابن القيم وهو الفقيه العالم الداعية كثيراً من كتاباته للحديث عن أمراض القلوب وأسبابها، حتى لا يكاد يخلو مؤلف منها، وإن بدت في بعض المؤلفات بشكل أكبر مثل مؤلفه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان)، ومدارج السالكين (ثلاثة أجزاء) والفوائد، والجواب الكافي، والروح... وغيرها. وهو ينظر إلى أمراض القلوب من المنطلق نفسه الذي تبصر به في نفس الإنسان على أساس من الالتزام بمنهج الإسلام من عدمه، فمرض القلب ما هو إلا انحراف النفس عما أمر الله به وإتيانها ما نهى عنه.

وفي كتابه الروح فإنه يجمع أصل كل عمل فاسد في الكبر والمهانة، فالكبر يصد عن الحق ويعمي البصيرة ويؤدي إلى البغي والعدوان، والمهانة والدناءة تنخفض بالمرء إلى الأسافل من الأعمال والأخلاق فتمنعه عن طلب الرفيع منها وتزين له الوضع منها. وفي كتابه مدارج السالكين يجمع الإمام ابن القيم مفسدات القلب في خمسة أسباب: (٤٥)

«وأما مفسدات القلب الخمسة فهي التي أشار إليها الهروي مؤلف منازل السائرين من كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب». (مدارج السالكين، ج ١، ص ٤٨٨).

وتجمع هذه الجوانب الخمسة بين الإسراف في العلاقات الشخصية مع ما يصاحبها من تعلم من نماذج سيئة والتأثر بأفكارهم والانقياد لأهوائهم، والتمني وهو ما يعبر عنه الباحثون النفسيون بأحلام اليقظة والبعد عن الواقع، فإن التمني لا يشتمل على عمل في حين أن الرجاء يكون مصحوباً بجهد، والتعلق بغير الله لأنه ضلال عن الطريق وعدم اهتداء إلى الإله الواحد الحق الذي خلقنا لعبادته فلا يكون هناك إخلاص في العمل، والشبع وهو يمثل نموذجاً للإسراف في إشباع الحاجات الأساسية والتغالي في ذلك مما يليهي عن إشباع مطالب الآخرة وكذلك الأمر في المنام حيث يفوت في كثرته على الإنسان لذة العبادة ولذة السعي.

ولا يقف الإمام ابن القيم عند عرض هذه المفسدات بل يفرد لها فصولاً لشرحها وبيان آثارها وفي مؤلفه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان فإنه يفرد فصولاً عديدة للحديث عن أمراض القلوب فيتحدث عن انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت، حقيقة مرض القلب، أمراض القلب طبيعية وشرعية، حياة القلب، القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من كل أمراضه، علامات مرض القلب، علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه، ومكائد الشيطان لابن آدم... إلخ.

وقد تناول الإمام ابن القيم بعد حديثه عن النفس وأنواعها وأمراض القلوب وأسبابها، بالحديث مجموعة كبيرة من الآفات التي تصيب الأشخاص والمجتمعات والتي أوضح الإسلام شرع الله فيها سواء منها ما يتعلق بالعقيدة أو العبادات أو المعاملات بين

الناس أو الأخلاق، وهي في عددها أكبر من أن نتناوله بالعرض الموجز. ولكن ما نود أن نؤكد في هذا المقام أن هذه الآفات كما يراها الإسلام هي أسباب تعس الأفراد والمجتمعات، وأن البعد عن المنهج الإسلامي هو الموقع فيها، وأن قصور الباحثين هو الذي صرفهم عنها وشغلهم بمسميات مثل العصاب والقلق والاكتئاب وهي كلها إنما تأتي نتيجة مباشرة أو لاحقة لتلك الآفات التي تصاب بها المجتمعات والأفراد والتي تغلق قلوبهم عن الحق، فيمرض الأفراد وقرض المجتمعات. يقول رحمه الله: (٤٦)

«وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك أنه لا تؤله جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بسبب حياته:

وما لجرح بميت إيلام

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس فيها أنفع منه». (إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٦٨، ٦٩).

ويقول في موضع آخر: (٤٧)

«ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويحبب إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذكره قوته وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والاتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبداً، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويدوق طعمها،

(٤٦) ابن القيم: إغاثة اللهفان: مرجع سابق، ج ١، ص ٦٨، ٦٩.

(٤٧) ابن القيم: إغاثة اللهفان: مرجع سابق، ج ١، ص ٧١-٧٣.

ويصير له حياة. أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسول ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بقوته حسرة وعقوبة...» (ص ٧١).

«وبالجملة فالقلب الصحيح : هو الذي همه كله في الله، وجهه كله له، وقصده له، وبذله له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث». (ص ٧٣).

هكذا في تناغم واتساق تأمين يتحدث ابن القيم عن أمراض القلوب وعن صحتها وقوام ذلك كله هو الالتزام بواجب العبودية لله وطاعته فيما أمر به والانهاء عما نهى عنه، فذلك هو الطريق الموصل لصحة القلب، والبعد عنه هو المؤدي إلى مرضه.

ولعل ما تشهده البشرية الآن من ضغوط هي في معظمها من صنع الإنسان نفسه بالتخلي عن الدين والانسياق وراء الماديات وإشباع الحاجات البدنية وإهمال الحاجات الروحية والصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان والظلم والبغي والعدوان واقتراف الآثام والانزلاق إلى مهاوي الجريمة وتعاطي المسكرات والمخدرات، وهذه كلها قد أدت إلى تفاقم الاضطرابات النفسية وفي مقدمتها عدوا الإنسان للدودان القلق والاكتئاب.

لقد وضح الإمام ابن القيم أن عدو الإنسان هو نفسه التي بين جنبيه، وأن الشيطان يحاول بلا هوادة أن يجد طريقه إلى القلب من خلال الأفكار والخواطر التي لو وجدت طريقها إلى الإرادة وإلى الجوارح لأصبحت عادات يصعب زوالها، كما أوضح أن المؤمن يبني «مصفاة» بداخله أساسها الإيمان والعقل لتمر عليها هذه الخواطر والأفكار فيقبل منها ما يوافق الإيمان وبذلك يخلص قلبه ويصح وينجو من المرض. أما الذي لم يخلص إيمانه فإن هذه المصفاة تتعطل وبذلك تجدد الأفكار الفاسدة طريقها إلى الإرادة وإلى الجوارح فتصبح القبائح والآثام طريقه وعاداته المألوفة. والرجوع إلى الدين الحق والتمسك به عقيدة وشرعية هو الطريق الموصل إلى الصحة صحة القلب وسلامته أو بلغة علم النفس الصحة النفسية Mental Health أو السلامة وطيب العيش Well Being.

وقد بدأ بعض الباحثين مؤخراً في الحديث عن نوع من الشخصية أطلقوا عليها الشخصية الصلبة أو الشديدة Hardy Personality وهي شخصية تتميز بال ضبط وبمواجهة الضغوط والشدائد دون استسلام لها أو انفعال بالغضب أو الخوف، ولعل الإسلام هو الذي



حدد معالم هذه الشخصية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان كما نلمسه في الحديث الشريف .  
عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ،  
إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . [ البخاري حديث ٩٥٠٦ ] .  
وهذه الشخصية تتوافر في المؤمن الحق الذي يدرك غاية وجوده وهو عبادة الله ، ويعمل  
للآخرة كما يعمل للدنيا ، ويرضى بالقضاء ويتمسك بالصبر ، ويضبط تصرفاته ويتحكم  
فيها ويلتزم حد الاعتدال في أفكاره ومشاعره وتصرفاته .

### تاسعاً - العلاج النفسي

ترتبط أساليب العلاج النفسي بالنظريات التي نشأت في ظلها ، وتتسق معها اتساقاً  
كاملاً . والمتأمل في فكر الإمام ابن القيم وكتاباتة يجد أنه يجمع فيها نسقاً واحداً لا تحيد عنه  
مقدار أنملة ، وهذا النسق - كما ذكرنا من قبل - هو نسق الإيمان الذي يتخذ منه معياراً  
للحكم على الخاطر والفكرة منذ ورودها على ذهن المرء ويستمر هذا المعيار معه حتى لونجح  
الخاطر في الوصول إلى الجوارح وظهوره في شكل فعل ظاهر ، فإن المسلم كما يقول الإمام  
ابن القيم يلزمه نوعان من المحاسبة « محاسبة قبل وقوع الفعل » . وهذه لها دور وقائي  
و« محاسبة بعد وقوع الفعل » . وهذه لها دور علاجي .

لو أردنا أن نلخص نظرة الإمام ابن القيم في العلاج لقلنا إنها نموذج إيماني معرفي ،  
نموذج يستخدم العقل في التعرف على موافقة الفكرة أو الخاطر لميزان الشرع ، أو معيار  
الإيمان ، وأن العلاج يكمن أساساً في قطع الأفكار أو الخواطر من بدايتها إذا لم تكن مستوفية  
لشروط الإيمان وبالتالي يقطع عليها طريق الظهور والاستحكام في شكل عادات سلوكية .  
كذلك فإن من بين ما يجعله ابن القيم قاعدة وقائية وعلاجية أن يلتزم المسلم الحد  
المحمود من الأخلاق فلا إفراط ولا تفريط ، وهو يضرب العديد من الأمثلة على ذلك . أما  
أساليب العلاج وتصحيح ما وقع فيه فهي الأساليب الإيمانية المعروفة من محاسبة النفس  
والتوبة والإنابة والرجوع إلى الله والدعاء والذكر والعبادات . وقد أورد الكثير من هذه  
الجوانب في كتبه مثل مدارج السالكين ، والوابل الصيب من الكلم الطيب ، وإغاثة  
اللهفان ، وطريق المهجرتين وباب السعادتين ، والجواب الكافي ( الداء والدواء ) والطب  
النبوي . . . وغيرها .

وبذلك فإن المسلم قد تعترض طريقه هنات تثيره - أكبرها هو ما يتعلق بالجوانب الشرعية الإيمانية وأساليب تصحيحها هي أساليب إسلامية بحثت تأتي التوبة في مقدمتها. ولكي يصل المسلم إلى واقع التوبة فلا بد له أن يكون قد عرض نفسه وأعماله على ميزان الإيمان وتبين له ما قصر فيه ووجه القصور يقول رحمه الله: (٤٨)

«ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة «التوبة»؛ لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه، وهي حقيقة «التوبة» فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة. والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين، محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ (الحشر: ١٨). فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟ (مدارج السالكين ج ١ ص ١٨٩). ويقول في مكان آخر: (٤٩)

«وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار».

ناقش ابن القيم فكرة الاعتذار التي أدخلها الهروي في شروط التوبة فيقول رحمه الله: «فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة». (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٠٢).

وفي الواقع فإن كل ما يعمل به الإنسان متصلاً بشؤون دنياه له أيضاً علاقة بواقع إيمانه وله بيان في الكتاب والسنة، فالعمل والإخلاص فيه، والأسرة وبنائها والعلاقات التي تسود بين أفرادها، والمجتمع وما بين أفرادها من علاقات ومصالح، وشغل الإنسان وفراغه، كلها

(٤٨) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٩.

(٤٩) ابن القيم: مدارج السالكين: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٢.

جوانب لا بد للإنسان أن يراقب ربه فيها، وأكثر ما يحدث من اضطرابات نفسية إنما يأتي من خلل في هذه الجوانب لبعدها عن منهج الإسلام. فالصراع بين الناس يأتي نتيجة الجور والبغي من بعضهم (ومن ضعف إيمانه) على بعض، والخلل داخل الأسرة يأتي من عدم التزام الشرع وما يفرضه من المسؤولية والعدل على كل فرد من أفرادها، وقد يكون أكثره كما يقول الإمام ابن القيم من تقصير الآباء في تربية أبنائهم وتعريضهم لنماذج سيئة يتعلمون منها، وقد يكونون هم أنفسهم (أي الآباء) هذه النماذج السيئة. والتقصير في العمل إنما يكون لفقدان معنى الإخلاص وهو أمر يتصل بحفظ الأمانة وحفظ العهد، وهي أمور يلزم الإسلام بها أتباعه. وهكذا كلما تتبعنا أمراً من الأمور التي نظن أنها منفصلة عن الدين نجد أنها في الواقع ذات صلة وثيقة به؛ لأنه يجمعها شخص واحد يتسق سلوكه، فالذي يهدر الوقت ويضيع الصلاة سنجده في إهدار وقت العمل أكثر، والذي سيسقط حق الله في ماله فإنه سيكون إلى غش الناس أسرع، وهكذا فكما أن صلاح الأعمال بصلاح الخواطر فإن صلاح السلوك كله بصحة الإيمان؛ لأن الميزان الذي نحكم به على الخواطر والأعمال كما قلنا هو ميزان الإيمان، وأما العقل فهو الأداة التي تجعلنا نحكم الحكم الصحيح تبعاً لهذا الميزان.

ومن هنا فإن نموذج التوبة ذلك الأسلوب الإسلامي يقع كما يقول ابن القيم بين محاسبتين أو بلغة علم النفس بين قياسين، المحاسبة الأولى قبل التوبة؛ لأنها هي التي تحدد لنا مدى البعد عن مسار الإيمان. والمحاسبة الثانية بعد التوبة وهي محاسبة تعين المسلم على معرفة ما إذا كان قد التزم بما عقد العزم عليه.

ويحاول الباحثون النفسيون في السنوات الأخيرة اتباع نموذج قريب من نموذج التوبة وهو يبدأ أيضاً بمراقبة الذات ثم يتلو ذلك عملية التصحيح وأخيراً الحكم على هذا التصحيح، والتشابه أو القرب الذي أشير إليه هنا هو تشابه الإطار وليس تشابه المحتوى، فأسلوب مراقبة الذات كما يقترحه هؤلاء الباحثون أسلوب ذاتي لا يقيس السلوك إلى شيء موضوعي وإنما يقيس السلوك إلى الإحساس الذاتي فهو نموذج خاوي، لأنه سيتباين في محتواه بين شخص وآخر ويخضع فقط إما لحكم العقل أو لحكم العاطفة، ولا يربط بين أفعال الدنيا وجانب الدين، أما النموذج الإسلامي فهو نموذج ثابت قائم على منهج الإسلام، المنهج الثابت الواضح الذي شرعه خالق الإنسان، سبحانه وتعالى، لهذا الإنسان هدايته وإصلاح

حياته وأخراه، ولذلك فمحتواه معلوم للإنسان بحكم الهداية والتبليغ وليس أمراً اجتهادياً بين الفرد ونفسه أو حتى بينه وبين مرشد آخر.

ومن هنا نقول إن نموذج التوبة في مجال العلاج يمكن بجانب كونه أساسياً فيما يتصل بجوانب الإيمان، نموذج إسلامي يمكن أن تستخدمه أيضاً في سائر شؤون الحياة. والإسلام دين المسؤولية وهو يطلب من كل مسلم أن يتحمل مسؤوليته نحو ربه في العبودية له سبحانه ونحو نفسه ونحو الآخرين، ولا يمكن أن يوجد انحراف خارج هذه الجوانب بل إن الباحث المدقق يعرف أنها كلها جوانب متكاملة. فكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن العبادة إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضى عنه.

والذي يمكن أن نخلص إليه هنا هو ما يأتي:

١ - إن عبودية الإنسان لربه هي غاية حياته كما حدد القرآن ذلك: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦).

٢ - إن العبودية لله يمكن أن تشمل كل ما يقوم به الإنسان من أعمال يرضى الله عنها. كما يعرفها بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله<sup>(٥٠)</sup> حيث يقول: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة...». (ص ٣٨).

٣ - إن الإنسان عليه أن يراقب عمله ويحاسب نفسه ليس عن العمل فقط ولكن على بداية الأعمال وهي الخواطر والأفكار ويعرضها على ميزان الإيمان مستخدماً عقله الذي كرمه الله به في الحكم عليها (أي على الأفكار والأعمال).

٤ - إن قطع الأعمال من بدايتها منذ أن تكون أفكاراً وخواطر أسهل وأولى من تركها إلى أن تصبح عادات.

٥ - إن التوبة والرجوع والإنابة وتصحيح ما صدر عن الإنسان سواء في حق ربه وهذا طريقه التوبة والإيمان والعمل الصالح أو في حق نفسه أو في حق الآخرين بما يفرضه الإسلام عليه، هذه كلها أساليب تصحيح السلوك ومعالجته.

(٥٠) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) العبودية (ط ٥) دمشق، المكتب الإسلامي، ١٣٩٩ هـ،

## الخلاصة

عرضنا في هذه الأوراق لجانب من فكر الإمام الفقيه المحدث العلامة ابن قيم الجوزية حول الإنسان ومنزلته وحول النفس وأحوالها وما يتفرع عنها من صفات تنتمي إلى النفس الأمانة أو إلى النفس المطمئنة، وكيف أن هناك لكل خلق حدًا إذا تجاوزه مال إلى الإفراط وإذا قصر عنه مال إلى التفريط، وأن النفس دائرة كالرحا، وأن ما تطحنه بين شقيها هي الأفكار والخواطر، وهذه الأفكار والخواطر منها ما هو صالح يناسب منهج الإيمان ومنها ما هو فاسد يلقيه الشيطان للإنسان ليضلّه عن الصراط المستقيم. فإذا تركت الأفكار والخواطر فإنها تصل إلى الإرادات، والإرادات تسلمها إلى الجوارح فتخرج أعمالاً وأقوالاً وتصبح بتكرارها عادات. وأن المؤمن يعرض هذه الخواطر والأفكار على ميزان الإيمان ويستخدم الأداة التي وهبها الله له وهي العقل في الحكم على مدى موافقتها لمنهج الإيمان أو عدم موافقتها له، وأن صاحب النفس المطمئنة الذي اعتادها سرعان ما يستبعد هذه الخواطر والأفكار من بدايتها. وأما صاحب النفس الأمانة فإنه لضعف ميزان الإيمان عنده يكون حكمه على هذه الخواطر والأفكار حكمًا فاسدًا مما يجعلها تتحرك إلى الإرادات والجوارح وتخرج أعمالاً ظاهرة، ثم تصبح عادات مستحكمة. وإذا قويت النفس اللوامة عنده فإنه يمكن أن يحاسب نفسه على ما فكرت فيه، فيمنعه من بدايته وهذا أفضل، فإذا وقع الفعل فإنه يندم عليه ولكن الندم وحده لا يكفي بل لابد من مسار إجرائي، للتصحيح والعلاج وهو مسار التوبة. وقد يكون التنبيه من خارج الفرد عن طريق الموعظة من الآخرين وهنا فإنه قد يبدأ في محاسبة نفسه والحكم على ما فكر فيه أو ما أقدم عليه فعلاً بأنه إثم أو فسوق أو عصيان، وبناء على هذا الحكم تتتابع خطوات التوبة. ويمكن أن نلخص فكر الإمام ابن القيم حول شخصية الإنسان باعتبارها السلوك المتسق فيما يأتي:

- ١ - إن الإنسان مخلوق ذو خصوصية في الخلق والتكريم.
- ٢ - إن الإنسان مخلوق لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده وكل أعماله تدور في هذا المسار.
- ٣ - إن الإنسان يولد على الفطرة والفطرة هي الإسلام والخير.
- ٤ - إن للأبوين دوراً مهماً في تربية الطفل وتنشئته على القيام بالواجب الذي من أجله خلق وهو عبادة الله، والالتزام بما شرع.
- ٥ - إن النفس الإنسانية بداخلها أحوال تتفاعل بعضها مع بعض هي النفس الأمانة،

والنفس المطمئنة والنفس اللوامة.

٦ - في الوقت الواحد لا يكون للإنسان إلا نفس واحدة هي السائدة فهي إما أمارة أو مطمئنة أو لوامة.

٧ - إن النفس المطمئنة هي التي تحتكم إلى الإيمان وتستفيد في الحكم من العقل، وهي التي تشبع حاجات الدنيا وتلبي مطالب الآخرة.

٨ - إن النفس الأمارة هي التي تستجيب لنزغات الشيطان الذي يلبس عليها دينها وحياتها فترى الخير قبيحاً وترى القبيح جميلاً.

٩ - وإن الظاهر الذي يبدو هو إما قلب صحيح قد التزم صاحبه بالإيمان، أو قلب مريض قد خضع صاحبه للشيطان.

١٠ - إن بداية الأعمال الظاهرة خواطر أو أفكار باطنة، والنفس دائماً تتعامل مع الخواطر والأفكار وهذه تتعامل مع الإرادات فإذا نجحت فإن الإرادات تأمر الجوارح، فيخرج العمل من الباطن إلى الظاهر.

١١ - إن أمثل أساليب الوقاية هو وقف الخواطر المنافية للشرع من بدايتها، وهذا يستلزم من المسلم أن يكون محاسباً لنفسه عارضاً لخواطره وأفكاره وأعماله على ميزان الإيمان، مستفيداً مما وهبه الله من عقل في هذا الحكم.

١٢ - وأما أساليب العلاج فهي تستلزم اتخاذ طبيعة جديدة، والعلاج ليس بالأمر السهل ولكنه ممكن لمن هداه الله إلى مخالفة نفسه والعزم على التغيير والتصحيح.

١٣ - يؤكد ابن القيم مبدأ الفروق الفردية، وأهمية توجيه الأبناء بناء على هذه الفروق.

١٤ - كما يؤكد كذلك الدور الذي يقوم به العقل واضعاً ميزان الإيمان أمامه دائماً.

١٥ - يرى ابن القيم أن أفضل منهج تنمو فيه شخصية المسلم الطاعة لله والخوف والرجاء ومحاسبة النفس وقطع الخواطر والأفكار من بدايتها وإلزام النفس بما يخالف هواها وإيجاد توازن بين مطالب الدنيا ولذتها وبين مطالب الآخرة ولذتها مع كون الآخرة أولى، لأنها موقف الحصاد الذي يعمل المؤمن من أجله.

١٦ - وينظر الإمام ابن القيم إلى مرض القلب على أنه راجع إلى البعد عن طريق الله واتباع خطوات الشيطان.

١٧ - كما يرى أن العلاج والتصحيح إنما هو فيما شرع الله وأن القرآن هو الشفاء من أمراض القلوب.

١٨- ويرى أن صحة الإنسان تقع بين ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وتشتمل على العمليات الآتية (المنازل):

«اليقظة» و«البصيرة» و«الفكرة» و«العزم».

وهذه العمليات يمكن أن نضاهيها بما يقرره علم النفس الحديث من عمليات مثل الانتباه، والإحساس، والإدراك، والتفكير، والدافعية، فاليقظة تشتمل على الإحساس والانتباه، والبصيرة تشتمل على الإدراك والتذكر، والفكرة تشتمل على التفكير، والعزم يشتمل على الدافعية وعلى إتيان السلوك.

يقول رحمه الله: (٥١)

«فلنرجع إلى ذكر منازل: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ التي لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها:

فذكرنا منها «اليقظة» و«البصيرة» و«الفكرة» و«العزم».

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنیان، وعليها مدار السفر إلى الله ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها البتة. وهي على ترتيب السير الحسي فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر. ثم يتبصر في أمر سفره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر في أهبة السفر، والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهي «التمييز» بين ما له وما عليه فيستصحب ما له أو يؤدي ما عليه؛ لأنه مسافر سفر من لا يعود». (مدارج السالكين، ج ١، ص ١٨٨، ١٨٩).

وهذا النموذج الذي نستقرئه من كتابات الإمام ابن القيم والذي فصله على أساس من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، هو نموذج شامل لتفسير سلوك الإنسان سواء في معانيه الدنيوية أو عمله وسعيه للأخرة، وفي رأينا أن التفريق بين الجانبيين لا مكان له في حياة المسلم المؤمن الذي يعرف أن غاية خلقه هو عبادة الله سبحانه وتعالى وأن وظيفته الموصلة لهذه الغاية هي الخلافة في الأرض وعمرانها، ومن هنا تبدو قوة هذا التصور للشخصية عن أي نموذج آخر لا يستند إلى المنهج الحق، منهج الإسلام، وصدق الله القائل: ﴿من عمل

صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿النحل: ٩٧﴾.

رحم الله إمامنا ابن القيم رحمة واسعة جزاء ما ترك من فكر وعلم ونفعنا بعلمه،  
وعلمنا ما ينفعنا، ونفعنا بما علمنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.